كوكتيل
شباب اليوم
روايات مصرية للجيب
اللغز
وقصص أخرى
د. نبيل فاروق
24
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥١ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

- مع بدء العـد التـازلى ، نحو القـرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. تبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

أوراق زهور

قلب ليس للبيع

(قصة كاملة)

علمتنا الحياة أن القاعدة الأساسية للوجود ، هى أنه لكل شىء ثمن ..

والحب ليس استثناءً من القاعدة ..

ولكن له ثمنًا واحدًا ..

الحب

نبيل

١ ـ الأوراق ..

صدقونى .. لست أدرى كيف أبدأ قصتى هذه ! ..

بل لست أدرى حتى كيف يمكن أن يكتب شخص ما قصته ، ويخطها على الورق !..

كيف يمكن أن يحوّل مشاعره إلى كلمات ؟! ..

كيف يفرغ عذابات أعماقه فوق أوراق جامدة ، لا تشعر أو تبالى ، أو تتفاعل مع آلامه ومرارته ؟! ..

كل ما يمكن أن يشعر به الورق هو دموعى ، التى تتساقط فوقه ، لأن مواضع سقوطها عليه ستتجعّد ، وتتغيّر ، وتفسد سطحه المنمّق الأنيق ..

ولكننى لا أجد بديلاً عن الكتابة ..

لابد أن أروى قصتى لأحد ، قبل أن تتصاعد نيران قلبى أكثر وأكثر ، وتلتهم كيانى كله ..

لابد أن يعرف شىء ما ، ما فعلته بقلبى ونفسى وحياتى ..

ولن أجد من يحفظ سرى ويصونه سوى الورق ..

وحده سيستوعب فى مساحاته كل كلماتى ، دون أن يفشى سرى .

دون حتى أن يقاطعنى ..

أو يلومنى ..

أو يسخر منى ..

الورق وحده سيحتمل اعترافى ، الذى سأخطه عليه بكل صراحة ووضوح ، و ..

ومرارة ..

ثم إنه لن يعارض قرارى فى النهاية ..

فإما أن أحتفظ باعترافى هذا فوق الورق ..

أو أمزّقه.. وأشعل فيه النيران ..

إنه قرارى وحدى ..

بعد أن أنتهى من اعترافى ..

وياله من اعتراف !! ..

هيا .. خذى كلماتى أيتها الأوراق ، قبل أن تنهار أعماقى ، وأعجز حتى عن الكتابة .

فى البداية دعينى أقدّم لك نفسى ..

اسمى (هبة) ..

ولا تسألينى عن باقى الاسم ..

يكفيك اسمى أنا ..

(هبة) ..

كل ما يمكننى أن أخبرك به عن أسرتى هو أنها أسرة كبيرة ..

شهيرة ..

معروفة ..

وثرية ..

وهذا الثراء الفاحش ـ كما يقولون ـ هو أساس مشكلتى ..

أو فلتقولى .. مأساتى ..

فأنا ، أيتها الأوراق ، من تلك الفئة ، التى يقال : إنها وُلدَت وفى فمها ملعقة من ذهب ..

بل ولن أبالغ لو قلت : إنها لم تكن فقط ملعقة ..

لقد وُلدَت وفى فمها طاقم كامل من الذهب والماس وكل الأحجار الكريمة المعروفة ..

وأحيط مولدى بحفاوة بالغة ، عبّرت عنها الصور الضوئية ، وشرائط (الفيديو) المسجّلة ، التى شاهدتها فى حداثتى ، والتى ملأت نفسى بالزهو والفخر ، وجعلتنى أتصوّر نفسى كأميرة من أميرات الأساطير ، التى أشاهدها فى أفلام (والت ديزنى) ، التى تفتحت عينى لأجد مجموعة كاملة منها فى مكتبتى ..

فوالدى ووالدتى ينتميان إلى عائلتين بالغتى الثراء ، ولقد تم زواجهما ، مثلما يحدث فى هذه الطبقة ، كإجراء اقتصادى ، لدمج الثروتين ، وكخطوة تجارية ، لإنشاء إمبراطورية مالية تسدّ عين الشمس ، كما يقول العامة ..

ولخمس سنوات كاملة ، لم ينعم اللّه (سبحانه وتعالى) عليهما بالإنجاب ، على الرغم من تأكيد كبار الأطباء ، فى (مصر) والعالم ، على أن كلا منهما طبيعى ، ولا يوجد ما يمنعه من الإنجاب ..

ثم فجأة ، وبعد أن بدأ اليأس يتسلّل إلى نفوس الجميع ، أعلنت أنا عن وجودى على نحو درامى .

فكما روت لى جدتى فيما بعد ، كان أبى وأمى يحضران حفلاً رسميًا فى سفارة دولة كبيرة ، وكانت أمى تهم بشرب كوب من العصير الطازج ، عندما أطلقت فجأة شهقة مكتومة ، ورفعت يدها إلى فمها ، ثم أسرعت إلى الحمام ؛ لتفرغ كل ما فى جوفها مع آهة حارة ..

وفى منتصف الليلة نفسها ، أعلن طبيب العائلة البُشرى ..

وبعد ثمانية أشهر وستة أيام بالضبط من هذه الواقعة ، أطلقت أنا صرختى الأولى فى هذه الدنيا ..

وكان من الطبيعى أن يقام لى حفل (سبوع) أسطورىّ ، على الرغم من أننى أتيت أنثى ، ولست ذكرا كما كان أبى وأمى يتمنيان ..

وبعد مولدى بقليل ، امتلأت نفس والدى باللهفة لإنجاب طفل آخر ، وأيدت أمى لهفته هذه بلهفة مماثلة ، ولكن كليهما أدركا ، بعد سنوات أربع ، أن هذا الأمل لم يعد ممكنا ، وأن عليهما أن ينتظرا حملا مصادفا ، كما جاء حمل أمى بى ..

ولم يحدث هذا الحمل أبدا للأسف ..

ولهذا ، أصبحت الابنة الوحيدة ، والمدللة لتلك الأسرة الشهيرة الثرية ..

ومنذ بدأت أعى ما حولى ، انتبهت إلى أن كل طلباتى أوامر ، وإلى وجود جيش من الخدم والحشم ، لا همّ له إلا تلبية أوامرى ، والنهاث لإحضار كل ما أشير إليه ، مهما كان صعبا أو عسيرا ..

أو حتى مستحيلا ..

وشببت بالفعل كالأميرة ، وحباني الله (سبحانه وتعالى) بجمال طبيعى زاد من زهوى ونرجسيتى ، وخاصة عندما ألمح نظرات الإعجاب والانبهار ، فى عيون كل الشبان الذين ألتقى

بهم ، فى الأسرة ، أو النادى ، أو حتى فى كلية الآداب ، التى التحقت بها بعد عامين من الرسوب فى الثانوية العامة ..

والتحاقى بكلية الآداب هو البداية الحقيقية لقصتى ..

فهناك ، التقيت بـ (عمر) ..

وقبل أن أقصّ عليكم لقائى الأوّل به ، دعونى أشرح لكم أمرا مهمًا ..

صحيح أننى نشأت بالغة الثراء والتدليل ، وأن هذا قد جعل طباعى لا تطاق ، كما ينبغى أن أعترف الآن ، إلا أنه ترك لى قلب بنت عادية ..

قلب حالم ، عاطفى ، يهفو إلى لمسة الحب الأولى ، وإلى دقات العشق ، التى تختلف حتمًا عن كل دقات القلب العادية ، وتعزف وحدها لحنا تلتهب به مشاعر كل أنثى ..

وبالذات فى تلك الفترة من العمر ..

وفى معظم ليالى الصيف والربيع ، لم يكن يغمض لى جفن ، حتى مطلع الفجر ، وذهنى يشترك مع قلبى فى رسم صورة لفتى أحلامى ..

صورة راحت تتكوّن وتتشكّل مع الأيام ، حتى خلت أنها حقيقة ، وأن فتى أحلامى هذا حى يرزق ، يحيا فى وجدانى ، وأصبحت لدى ثقة قوية بأننى سألتقى به يوما فى عالم الحقيقة ، حتى إننى رحت أنتظر هذا اللقاء ، وأترقّبه فى لهفة ، وأحلم به فى نومى ويقظتى .

وأعتقد أنكم ، بعد ما شرحته لكم ، ستفهمون جيدا لماذا سرت

فى عروقى قشعريرة باردة ، وانتفض جسدى كله ، واختلج قلبى بين ضلوعى ، عندما وقع بصرى على (عمر) لأول مرة ..

وفى أول يوم من أيام الدراسة ..

بل فى أوّل ساعة ..

لقد كان (عمر) هو رئيس اتحاد طلاّب الكلية ، وكان قد أعدّ حفل استقبال بسيط للطلبة الجدد ، لامتصاص توترهم وقلقهم ، ومنحهم الشعور بالأمان والهدوء ، ودفعهم إلى تعرّف مجتمعهم الجامعى ، والاندماج فيه دون مخاوف أو تعقيدات ..

وما إن وقعت عيناى على وجه (عمر) الوسيم وابتسامته الهادئة الودود ، حتى وجدت نفسى أهوى فى بئر حبه حتى القرار، وأصرخ بكل لهفة فى أعماقى ..

إنه هو ..

إنه فتى أحلامى ..

كان نسخة طبق الأصل من تلك الصورة ، التى صنعتها فى أحلامى منذ تنسّم قلبى رحيق المراهقة الأوّل ..

نفس الوجه ، والعينين ، والابتسامة ..

نفس الهدوء ، والثقة ، والوسامة ..

إنه هو ..

هو ..

هو ..

ولست أدرى بالضبط كيف مرّ بى ذلك الحفل ، ولا ما إذا كان الجميع قد لاحظوا نظرة الانبهار ، التى أحدجه بها طوال الوقت

أم لا ، ولكن ما أعرفه جيدًا هو أن الحفل لم يكد ينفضّ ، حتى كنت قد اتخذت قرارى فى هذا الشأن ..

فلم يعد الهدف من التحاقى بكلية الآداب ، هو الحصول على شهادة الليسانس ..

بل أصبح هدفى الأوّل هو الحصول عليه ..

على (عمر) .

* * *

٢ ـ اللعبة ..

« أستاذ (عمر) .. » ..

لست أدرى ما إذا كانت اختلاجة قلبى قد انتقلت إلى صوتى أم لا ، عندما ناديته باسمه ، فى ساحة الكلية ، ولكنه عندما التفت إلىّ ، كانت عيناه تحملان نظرة عجيبة ، تجمع ما بين الدهشة والتساؤل والاهتمام ، مع شىء من الإعجاب ، شجّعنى على الاستطراد ، قائلة فى سرعة :

ـ أريد استشارتك فى أمر خاص .

ارتفع حاجباه فى مزيد من الدهشة ، وهو يغمغم :

ـ خاص ؟!

ارتبكت وأنا أجيب :

ـ نعم .. خاص بخبرتك فى .. فى اتحاد الطلاّب .

رمقنى بنظرة طويلة ، وكأنه يحاول النفاذ إلى أعماقى ، وكشف الهدف الحقيقى لسؤالى ، إلا أنه لم يلبث أن اعتدل فى هدوء ، وقال فى لهجة مهذّبة :

ـ أنا رهن إشارتك .. ما الذى ترغبين فى معرفته ؟!

ارتبكت أكثر وأكثر ، لأنه لم يكن لدىّ ما أسأل عنه فعليًا ، وتطلّعت إليه لحظات فى صمت متوتر ، وهو يتطلّع إلى عينىّ مباشرة ، فى انتظار سؤالى ، ونظراته تزيدنى اضطرابًا وارتباكًا ، والصمت بيننا يطول ويطول ، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة متعاطفة ، وسألنى بلهجة هادئة رقيقة :

ـ هل ترغبين فى ترشيح نفسك ، فى انتخابات اتحاد الطلاّب القادمة ؟!

كدت أصرخ من فرط السعادة ، عندما انتشلنى سؤاله من بحر حيرتى العميق ، وهتفت فى لهفة :

ـ بالتأكيد .

اتسعت ابتسامته ، وهو يسألنى :

ـ لأية لجنة من لجان الاتحاد ؟

أجبته بسرعة :

ـ اللجنة التى تنتمى إليها .

قفزت الدهشة إلى وجهه وعينيه بغتة ، وانفرجت شفتاه لحظة فى حيرة واضحة ، ثم اعتدل فى وقفته ، وخُيّل إلىّ أنه فهم حقيقة الموقف فى لحظة واحدة ، وهو يجيبنى فى رصانة ووقار ، اختلج لهما قلبى :

ـ اللّجنة الاجتماعية ترحّب بك يا آنسة ...

هتفت بسرعة :

ـ (هبة) .. اسمى (هبة) .

ابتسم ، قائلاً :

ـ اللجنة الاجتماعية ترحّب بك يا آنسة (هبة) ، وأعدك أن أساعدك بقدر استطاعتى ، وفى حدود ما تسمح به لوائح اتحاد الطلاّب ، لتفوزى بالمقعد ، فى الانتخابات القادمة بإذن الله .

رقص قلبى لكلماته ، واختلج فى قوة ، وأنا أراقبه يبتعد عنى ، وهتف هاتف فى أعماقى للمرة العاشرة ..

أريد هذا الشاب بالذات ..

أريده ..

وبكل اللهفة والرغبة فى أعماقى ، رحت أجمع أكثر قدر من المعلومات عن (عمر) ..

وكان أوّل ما عرفته هو أن (عمر) من أسرة عادية بسيطة ، لا هى بالغنية ولا بالفقيرة ..

اسرة يمكنها أن تحيا حياة كريمة ، وأن تحصل على كل احتياجاتها الضرورية ، ولكنها لا تستطيع التطلّع إلى الرفاهية ، ولا تملك حتى أن تفعل ، ولا أن تدخر قرشًا واحدًا ..

وعرفت أيضًا أن (عمر) من المتفوقين فى الكلية ، وأنه فاز

بمنصب رئيس اتحاد الطلاّب لعامين على التوالى ، وأنه يستعد لترشيح نفسه للمنصب ذاته ، فى هذا العام أيضًا ..

وأنه يهوى التصوير الفوتوجرافى ، ويزاوله باستخدام آلة تصوير بسيطة بدائية روسية الصنع ، يعتزّ بها كثيرًا ، على الرغم من إمكانياتها المتواضعة ، التى يجيد استخدامها والتعامل معها ؛ ليخرج بلقطات رائعة فريدة ، لم أر أجمل منها فى حياتى كلها ..

وبحسبة بسيطة ، أدركت أن هذا هو المدخل الصحيح لقلب (عمر) ..

هوايته ..

ففى طفولتى ، سمعت جدى يقول : إن أفضل وسيلة للتقرُّب إلى شخص ما ، هى مشاركته هوايته المفضّلة ، فالمرء يميل بطبيعة الحال إلى من يشاركونه اهتماماته وميوله ..

وفى مساء اليوم نفسه ، أبرقت إلى مكتب والدى فى (واشنطن) طالبة من المدير هناك أن يبتاع لى أفضل آلة تصوير يابانية موجودة ، وأن يرسلها إلى (القاهرة) بأسرع وأضمن وسيلة ممكنة ..

وعلى عكس (عمر) ، لم يكن الحصول على أحدث آلة تصوير فى العالم ، يمثل لى أية مشكلة ، فلم تمض أيام ثلاثة على برقيتى ، حتى وصلتنى حقيبة أنيقة ، تحوى آلة تصوير حديثة للغاية ، مع طاقم العدسات الخاص بها ..

ولم يحاول طاقم مكتب (واشنطن) حتى استشارة أبى فى

(القاهرة) ، قبل شراء آلة التصوير وإرسالها ، فقد علمتهم الأيام أن طلبات (هبة) أوامر ، لابد وأن توضع دائما على قمة الاهتمامات ، وأن تسبق حتى أوامر أبى نفسه .

وعندما وصلت آلة التصوير لم يحاول أبى حتى أن يسأل عن سبب طلبى لها ، ولم يلق نظرة واحدة على فاتورة شرائها ، التى تجاوزت الألفى دولار ..

إنها لعبة جديدة طلبتها (هبة)..

وهذا يكفى ..

الشىء الوحيد الذى أدهشه ، هو فرحى الشديد ولهفتى البالغة . عندما وصلت آلة التصوير ، فحتى فى طفولتى ، لم أبد أى فرح أو لهفة ، تجاه أية لعبة جديدة ، مهما بلغت قيمتها ، أما والدتى ، فقد أضاء وجهها بابتسامة كبيرة ، وربتت على كتفى ، وهى تتمنى لى المزيد من السعادة كعادتها ..

وفى تلك الليلة لم يغمض لى جفن بحق ..

لقد قضيت ليلتى كلها أقلب آلة التصوير ، وأقرأ الدليل الخاص بها ، فى محاولة لفهم بعض خواصها ، قبل أن أحملها فى الصباح التالى إلى الكلية .

وفى لهفة ، رحت أبحث عن (عمر) فى كل مكان ، حتى عثرت عليه ، منهمكا فى الحديث حول انتخابات اتحاد الطلاب القادمة ، مع عدد من زملائه ، فأقحمت نفسى فى حديثهم ، بحجة استعدادى لخوض الانتخابات ، وتركت حقيبة آلة التصوير الجديدة تتدلى من كتفى فى أناقة ، وقلبى يخفق فى قوة ، ويتمنى ألا

يستغرق (عمر) طويلاً ، قبل أن يبدى اهتمامه بها .

ورقص قلبى بين ضلوعى فى سعادة غامرة ، عندما لمحته يتطلع إلى الحقيبة فى اهتمام بالغ ، ولهفة لم يحاول إخفاءها ، قبل أن يميل نحوى ، ويسأل :

ـ هل تحوى هذه الحقيبة آلة تصوير ، أم ...

لم أمنحه الفرصة ليتم سؤاله وأنا ألتفت إليه ، وأجيب فى سرعة ولهفة :

ـ بالطبع .. هل ترغب فى رؤيتها ؟

تهللت أساريره كطفل صغير ، وهو يهتف :

ـ آه .. بالتأكيد .. لو أنك تقبلين هذا .

أسرعت أدفع الحقيبة كلها إليه ، وأنا أقول فى سعادة :

ـ ولماذا أرفض ؟! .. الواقع أننى أحضرتها خصيصا لسؤالك عن بعض خصائصها ، فأنا أعلم أنك تهوى التصوير الضوئى .

وعاد قلبى يرقص طربا ، وهو يلتقط الحقيبة فى حرص ملهوف ، كما لو أنه أب يحمل طفله الأول فور مولده ، وأطلت سعادته مع صوته ، وهو يقول :

ـ إنها المرة الأولى التى أشاهد فيها آلة تصوير من هذا الطراز .. لقد قرأت عنها فحسب .

وفى تلقائية جميلة ، جلس فوق إحدى درجات السلم المجاور ، والتقط آلة التصوير من الحقيبة فى حرص وعناية ، وكأنما يلتقط تحفة ثمينة من زجاج هش ، ويخشى أن تحطمها أصابعه ، مع أقل ضغط ..

وتضاعف انبهارى به ، وأنا أجلس إلى جواره ، وأراقبه وهو يفحص آلة التصوير فى سعادة وانبهار ، وعلى نحو يشف عن اهتمام وخبرة فى هذا المجال ، وحاولت أن أقول شيئًا ، إلا أن الكلمات انحبست فى حلقى ، وظلّت تقاوم لسانى طويلاً ، قبل أن تنطلق فى صوت متحشرج :

ـ هل .. هل تروق لك ؟!

هتف بالجواب فى حماس :

ـ بالتأكيد .. لطالما تمنيت الحصول على مثلها .

ثم تلاشى الحماس من صوته وعينيه ، وأطلّ شىء من الحزن بدلاً منهما ، وهو يتابع فى خفوت :

ـ ولكن لا أملك ثمنها .

تمنيت لحظتها أن أهتف به :

ـ إنها لك .. لقد أحضرتها من أجلك .

ولكن الكلمات احتبست فى حلقى ، وأنا أتطلّع إليه صامتة ، فى حين راح هو يقول ، وهو يتابع فحص آلة التصوير :

ـ هل تعلمين .. بآلة تصوير كهذه ، يمكننى أن أقيم معرضًا فريدًا ، خلال شهر واحد .

اخترقت كلمة واحدة حلقى ، وأنا أتمتم بصوت مختنق :

ـ حقًا ؟!

تنهّد مجيبًا :

ـ ليس لدى أدنى شك فى هذا .. إنها آلة تصوير رائعة ، وإمكانياتها بلا حدود .

كدت أحسد آلة التصوير ، على ما تحظى به من حبه ورعايته واهتمامه ، وأنا التقط أنفاسى ، وأزدرد لعابى ، قائلة :

ـ فليكن .. يمكنك أن تبدأ فى الإعداد لمعرضك .

التفت إلىّ ، يسألنى فى دهشة :

ـ ماذا تعنين ؟!

تطلّعت لحظة إلى عينيه الحانيتين المندهشتين ، قبل أن أجيب :

ـ أعنى أنه يمكنك الاحتفاظ بها ، حتى تقيم معرضك .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وقفزت دهشته إلى ذروتها ، وهو يقول :

ـ أحتفظ بها ؟! .. هل تعنين حقًا ما تقولين ؟! .. أتعلمين كم تساوى آلة تصوير كهذه ؟

نهضت قائلة :

ـ إنها لن تساوى شيئًا ، لو لم تخرج منها صور رائعة ، كالتى تلتقطها أنت .

حدّق فى وجهى بدهشة بالغة ، وأطلّ فى عينيه مزيج من الشكر والامتنان ، كاد قلبى يهوى له بين ضلوعى ، لو لم أهتف مستطردة :

ـ اعتبرنى شريكتك فى معرضك القادم .

وأسرعت أبتعد عنه ، قبل أن تفضحنى عيناى ، أو تبلغ خفقات قلبى مسامعه .

وعندما غادرت الكلية ، كنت واثقة من أننى قد ربحت الجولة الأولى فى اللعبة .

وفى قلبه .

* * *

٣ ـ خفقـات ..

لم يكد موسم الانتخابات الطلابية يهل ، حتى اشتعلت الجامعة كلها بالحماس ، واكتظت جدرانها باللافتات الدعائية ، التى تدعو الطلاب لانتخاب هذا أو ذاك ، وتجمع عدد من الطلاب فى كل ركن ، حول بعض المرشحين ، الذين راحوا يشرحون برامجهم الانتخابية ، بكلمات حماسية وأصوات عالية ..

فيما عدا (عمر) ..

وحده ظل هادئا مبتسما كعادته ، يتحدث إلى الجميع فى تلقائية وبساطة ، دون أن أجد اسمه على لافتة واحدة ..

وبكل الدهشة والقلق فى أعماقى ، سألته :

ـ أين دعايتك الانتخابية ؟! .. لماذا لا تشرح برنامجك للزملاء ، كما يفعل الآخرون ؟

ابتسم فى هدوء ، وهو يجيبنى :

ـ برنامجى لا يحتاج إلى الشرح ، فأفراد دفعتى كلهم يعرفوننى ، ويعرفون ما فعلته من أجلهم طوال العامين الماضيين ، أما بالنسبة للدعاية ، فلن يمكننى تعليق لافتات أنيقة كالآخرين .

سألته فى حيرة :

ـ لماذا ؟!

تطلع إلى عينىّ لحظة فى صمت ، قبل أن يجيب فى بساطة ، دون أن يفقد ابتسامته الهادئة الواثقة :

ـ لأننى لا أملك ثمنها .

صدمنى الجواب فى البداية ، وجعلنى أتساءل فى أعماقى :

ـ أمن الممكن ألا يجد شخص ما ثمن مجموعة من اللافتات الدعائية ؟!

ولكننى لم ألبث أن تذكرت حديثا قديما لجدتى ، أخبرتنى فيه أنه من الناس من لا يجدون حتى قوتهم اليومى ، فغمغمت فى خفوت :

ـ لا تملك ثمنها ؟!

أومأ برأسه إيجابا فى بساطة ، وتابع :

ـ أسرتى أسرة عادية ، ليست بالفقيرة أو الغنية ، ووالدى لا يبخل علينا بكل ما يمتلك ، ولكن ليس من العدل أن أنفق جزءا من دخلنا المحدود لعمل دعاية انتخابية .

تطلعت إليه فى انبهار ، وهو يتحدث إلىّ بتلقائية مدهشة ، ويصف لى حياته ومستوى أسرته المحدود ..

وفى أعماقى ولدت فكرة جديدة ..

لو أن (عمر) لا يملك تكاليف حملته الدعائية ، فأنا أملكها ..

ولكن كيف يمكننى منحه إياها ؟!..

إنه سيرفض أية نقود بالتأكيد ، حتى ولو منحته إياها كقرض محدود ، ولن يقبل الفكرة من الأساس ، و ...

وفجأة ، قفزت الفكرة إلى ذهنى ..

ولأنها لم تكن تحتاج إلا للوقت والنقود ، فقد شرعت فى تنفيذها فور عودتى إلى المنزل .

لم أقم بتنفيذها بنفسى بالطبع ، وإنما أسندت المهمة إلى واحد

من موظفى والدى ، الذى أسرع يعدّ كل ما طلبته منه ، دون أية أسئلة كالمعتاد ..

وفى الصباح التالى ، كانت جدران الكلية كلها تحمل لافتات دعائية بالغة الأناقة ، تدعو لانتخاب حبيبى ..

(عمر) ..

وجاء رد فعل الجميع عجيبًا للغاية ..

لقد أصابتهم دهشة بالغة ، لأن (عمر) لم يستخدم اللافتات الدعائية قط ، منذ قام بترشيح نفسه فى الانتخابات للمرة الأولى .

وكان أكثر الجميع دهشة هو (عمر) نفسه ..

لقد أدار عينيه فى اللافتات حائرًا ، قبل أن يقول فى دهشة تحمل شيئًا فى الاستنكار :

ـ من فعل هذا ؟!

ارتبكت للأسلوب الذى نطق به عبارته ، وسألته :

ـ ألم يسعدك هذا ؟

أجابنى فى حدة :

ـ كلاً بالطبع .. فكرة اللافتات الدعائية هذه تخالف أسلوبى تمامًا .

شعرت بالحرج ، وأنا أغمغم :

ـ ربما فعلها شخص يحبك ، تصوّر أنها ستفيدك .

وتعمّدت الضغط على كلمة (يحبك) هذه ، لعلّ رسالتى تصل إليه ، إلا أنه لم ينتبه إلى هذا ، وهو يجيب فى شىء من الغضب :

ـ كان ينبغى أن يستشيرنى أولاً .

انخفض صوتى أكثر ، وأنا أجيب فى انكسار :

ـ لقد خشى أن ترفض .

قال فى عصبية :

ـ ولو .. كان المفترض أن ..

ثم بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه ، وهو يلتفت إلىّ ، ويحدّق فى وجهى بدهشة ، جعلتنى أخفض عينىّ ، متمتمة :

ـ لم أكن أدرك أن هذا سيغضبك هكذا .

هتف فى لهجة أشبه بالارتياح :

ـ أنت ؟!

ارتجفت شفتاى ، وأنا أومئ برأسى إيجابًا ، والدموع تترقرق فى عينىّ ، فحدّق فى وجهى لحظة ، وانفرجت شفتاه ، وكأنه يهمّ بقول شىء ما ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه ، وانطلق مبتعدًا فى خطوات سريعة واسعة ..

وخفق قلبى فى عنف ..

خفق كطير ذبيح ، يذرف آخر قطرة من دماء الحياة ..

وانهارت مشاعرى كلها فى أعماقى ..

ماذا فعلت ؟! ..

لقد سعيت لكسب قلب حبيبى ، فخسرته إلى الأبد ..

نشدت سعادته ، ففجّرت غضبه وسخطه علىّ أبدًا ..

ماذا فعلت ؟! ..

ماذا فعلت ؟! ..

ودون أن أدرى ، انسكبت دموعى الحارة على وجهى ، وراحت تغرقه كسيل وحشى ، دون أن أنتحب ، أو تصدر عنى آهة واحدة ..

والعجيب أن أحدًا لم يحاول سؤالى عن سبب بكائى ، أو يقترب منى حتى طوال الفترة التى سالت فيها دموعى ..

الجميع اكتفوا بالتطلع إلىّ لحظات ، ثم انصرفوا غير عابئين ، وكأنما لا يعنيهم أمرى ، أو تشغلهم دموعى ..

ربما لأننى لست الطالبة الوحيدة ، التى سالت دموعها فى الحرم الجامعى ..

أو لأنه ليس لى أصدقاء سوى (عمر) ، فى الكلية كلها ..

ربما ..

المهم أننى ظللت أبكى لنصف ساعة أو يزيد ، حتى خُيّل إلىّ أن دموعى قد نضبت تمامًا ، عندما فوجئت بيد تمتدّ إلىّ بمنديل نظيف ، وصاحبها يقول فى خفوت :

ـ جففى دموعك .

خفق قلبى مرة أخرى فى عنف ، وأنا ألتفت إليه .

إلى (عمر) ..

ومع اللهفة التى أطلّت من عينىّ ، غمغم هو فى شىء من الخجل :

ـ معذرة .. لم أكن أقصد ما قلته .. الواقع أننى أشكرك كثيرًا على ما فعلت من أجلى .. صدقينى .. أنت أفضل أخت لى فى هذا العالم .

ولا أحد يمكنه أن يصف خفقات قلبى فى تلك اللحظة ..

لقد رقص كيانى كله معها ، وهو يشكرنى على ما فعلته من أجله ، وكادت تلك اللحظة تصبح أفضل وأروع لحظات حياتى ، لولا كلمة واحدة ..

عندما وصفنى بأننى أفضل (أخت) له ..

لا يا (عمر) ..

لست أريد أن أكون أختك ..

أريد أن أصبح حبيبتك ..

حبيبتك يا (عمر) ..

ولكن لا بأس بها من بداية ..

المهم أنه شعر بما أفعله من أجله ..

وأدرك كم أحبه ..

والأكثر أهمية أنه نجح ..

نجح نجاحًا ساحقًا فى هذا العام ، أفضل مرتين من نجاحه فى الأعوام السابقة ، وكأنما أتت فعلتى ثمارها ، وأضافت إليه

أصوات نخبة جديدة من الطلاّب ، مازالت تؤمن بأسلوب اللافتات الدعائية التقليدية ..

وفى غمرة سعادته بالنجاح ، شكرنى (عمر) فى حماس لما فعلته من أجله ، ثم قال لى فى انفعال :

ـ وبالمناسبة .. آلة التصوير التى أقرضتنى إياها ، أدت عملها بنجاح منقطع النظير ، وأنا أستعد لإقامة المعرض خلال أسبوعين .

صفقت بكفىّ فى سعادة كالأطفال ، وأنا أهتف :

ـ حقًا .

اتسعت ابتسامته ، حتى شملت وجهه كله ، وهو يومئ برأسه إيجابًا ، ويقول فى سعادة :

ـ وأعتقد أنك أحق الناس بافتتاحه .

هل يمكنكم أن تتخيّلوا سعادتى حينذاك ؟! ..

لقد خفقت عروقى كلها بفرحة غامرة ، ولم أستطع النوم لأسبوع كامل ، وأنا أفكر فيما قاله ، وفى المعرض القادم ، الذى منحنى شرف افتتاحه ، وفى كيفية جعله أفضل معرض للتصوير الفوتوجرافى شهدته الجامعة منذ افتتاحها ..

ولم يكن هذا عسيرًا ، مع اتساع دائرة معارف أبى واتصالاته .. وفى صباح يوم الافتتاح ، فوجئ (عمر) بكل الصحف اليومية تقريبًا تشير إلى معرضه ، وتصفه بأنه رئيس اتحاد طلاّب الكلية وفنان الجامعة ، وتصدّرت صورته باب أخبار الجامعات فى إحدى الصحف الشهيرة ، وتنازلت أنا عن حق افتتاح المعرض للأستاذ (رفقى) ، أشهر مصوّر صحفى فى

(مصر) كلها ، الذى انبهر بالصور التى التقطها (عمر) بالفعل ، وهنأه عليها كثيرًا ، وتنبأ له بمستقبل باهر ..

بل وبلغت دهشة (عمر) ذروتها ، عندما فوجئ بمندوب شركة خاصة يتعاقد معه على استغلال صوره فى إنتاج نتيجة حائط أنيقة للعام الجديد ، ومنحه عربونًا ضخمًا ، مع وعد بوضع اسمه على كل الصور ..

وأعتقد أنكم أدركتم على الفور أن هذه الشركة واحدة من الشركات التابعة لإمبراطورية أبى ..

ولكن (عمر) لم يدرك هذا لحسن الحظ ..

ولقد قفزت سعادته إلى القمة بهذا المعرض ، وأخبرنى أننى جلبت له حسن الحظ ..

وكان كل هذا كفيلاً بتفجير كل ينابيع سعادتى ..

لولا صورة واحدة ..

صورة وضعها (عمر) فى مكان الصدارة فى معرضه ، وكأنه يحمل لها اعتزازًا خاصًا للغاية ..

أو بمعنى أدق ، يحمل لصاحبتها كل الاعتزاز والتقدير ..

فالصورة كانت لفتاة فى مثل عمرى تقريبًا ، عادية الملامح ، بسيطة الملبس ، على نحو يشفّ عن التواضع ورقة الحال ، ولكن وجهها كان يحمل ابتسامة عجيبة ..

ابتسامة أثارت فى أعماقى قدرًا هائلاً من الغيرة ، بكل ما تحمله من رقة وعذوبة وسحر ..

ابتسامة حب ..

وفى قلق لا يوصف ، سألت أحد أصدقاء (عمر) المقربين :

ـ لماذا أحاط (عمر) هذه الصورة بكل الاهتمام ؟

ابتسم صديقه ، وهو يتطلع إلى الصورة فى إعجاب ، قائلاً :

ـ هذا أمر طبيعى ، فهى صورة (ليلى) .

تصاعدت حدة الغيرة فى أعماقى ، وأنا أسأله :

ـ (ليلى) من ؟!

أجاب فى بساطة :

ـ (ليلى) ابنة عم (عمر) .

كان هذا الجواب وحده يكفى لإثارة أطنان من غيرتى ، فما بالكم بما أضافه فى هدوء :

ـ وحبيبته .

ومع قوله ، انطلقت خفقات قلبى كقنبلة نووية ..

لقد كان الجواب أشبه بصاعقة هوت على قلبى ، ومزقته إربا بلا هوادة ..

صاعقة لا تحمل أدنى قدر من الرأفة ..

أو الرحمة .

* * *

٤ ـ الصدمة ..

انتهى المعرض ، ورُفعت كل الصور من أماكنها ..

فيما عدا صورة (ليلى) ..

صحيح أنها لم تعد تحتل مكانها فى صالة العرض ، ولكن شيئا لم يستطع انتزاعها من قلبى وعقلى قط ..

لقد انحفرت صورتها فى كيانى ، وانغرست فيه ، لتدمى قلبى طوال الوقت بلا انقطاع ..

لم أستطع قط نسيان ما وصفها به صديق (عمر) ..

إنها ابنة عمه ..

وحبيبته ..

لو أنها حبيبته ، فمن أكون أنا ؟! ..

ما موقعى فى قلبه ؟! ..

ما الذى صنعه كل ما فعلته من أجله ؟! ..

لماذا هى وليس أنا ؟! ..

لماذا ؟! ..

لماذا ؟! ..

لماذا ؟! ..

لم أناقش هذا الأمر قط مع (عمر) ، بل لم أشر حتى إليه ، على الرغم من لهفتى طوال الوقت لهذا ..

وهو بدوره لم يشر إلى (ليلى) هذه أبدًا ..

لقد استمرت علاقته بى أنيقة نظيفة ، يغلفها الأدب والود ، دون أن تتجاوز حدود الصداقة ، أو تقترب ، مجرد الاقتراب ، من حافة الحب .

ووقر فى قلبى أن (ليلى) هذه هى المسئولة عن الحاجز بينى وبينه ..

هى السبب ، فى أن (عمر) لا يشعر بحبى له ..

صحيح أننى لمحت نظرة حب فى عينيه مرة أو مرتين ، وهو يتحدث إلىّ ، إلا أنها كانت تختفى بسرعة خلف حاجز من الرصانة والاحترام المهذب ، اللذين ترتجف لهما عروقى حنقًا وغضبًا .

وصدقونى أننى حاولت جاهدة نسيان أمر (ليلى) هذه ..

حاولت ، وحاولت ، وحاولت .

ولكننى فشلت ..

لم يكن بمقدورى قط أن أنسى الفتاة التى يحبها حبيبى ..

لم يكن من الممكن أن أستوعب حتى وجودها ..

وكثيرًا ما كنت أتساءل : ما الذى وجده فيها ؟!

ما الذى جعله يحبها ؟!

وكلما ألقيت السؤال على نفسى ، كانت صورتها تتمثل فى ذهنى ، بابتسامتها الرقيقة الساحرة ، فتمتلئ نفسى بالغيرة والحنق والحسد ، وأبكى طويلاً فى فراشى ..

وعلى الرغم من ثقتى بحبه لها ، واصلت علاقتى بـ (عمر) ، الذى كاد يطير فرحًا ، عندما تم طبع النتيجة ، التى تحوى صوره وتوقيعه ، ومال على أذنى هامسًا :

ـ الفضل لك ، بعد الله (سبحانه وتعالى) .

رقص قلبى فرحًا لقوله ، ووجدت نفسى أكره (ليلى) هذه أكثر وأكثر ، فلولاها لكان قلبه خالصًا لى ، بكل حبه ودفئه وحنانه ..

ولست أدرى كيف مر بنا العام الدراسى ، وقلبى يحمل كل هذه المشاعر ، ولكننى استيقظت فجأة ، لأجد أن (عمر) قد انتهى من الامتحانات النهائية ، وبات ينتظر النتيجة ، للحصول على درجة (الليسانس) ..

وفى آخر أيام العام الدراسى ، جلست طويلاً مع (عمر) ، الذى حدثنى عن آماله وأحلامه ، على نحو وجد صدى رائعًا فى قلبى ، وجعلنى أتساءل : أما زال يحب (ليلى) هذه حقًا ؟!

وعندما نهضنا لننصرف ، كدت أتعلق به ، وأناشده أن يبقى ، فلم يكن بمقدورى أن أتصور أنه سيمضى الصيف كله ، دون أن أراه .

ولقد ضغط هو يدى فى حنان دافئ ، وهو يقول :

ـ سأبذل قصارى جهدى لنظل على اتصال يا (هبة) ، وأتمنى أن أراك يوم ظهور النتيجة .

قلت بصوت متهدّج ..

ـ سأنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر .

لم أكد أنطقها ، حتى شعرت بخجل عارم ، جعلنى أستطرد فى سرعة :

ـ لأعرف نتيجتك على الأقل .

حمل وجهه ابتسامة حانية رائعة ، وارتفع حاجباه فى تأثر ، وهو يتطلّع إلى عينىّ مباشرة ، قبل أن يقول فى عمق :

ـ النتيجة لا تقلقنى كثيرا يا (هبة) .. لقد بذلت قصارى جهدى ، وأعتقد أن النجاح سيكون من نصيبى بإذن الله . ولكنه مجرّد خطوة فى حياة الإنسان ، فالمهم بعدها أن يحصل على عمل جيد ، وأن ينجح فى حياته العملية ، و ...

وصمت لحظة ، وهو يواصل التطلّع إلى عينىّ ، قبل أن يضيف بصوت خافت حنون :

ـ وأن يحقّق أحلامه .

لا أحد يمكنه أن يرسم صورة لى فى ذلك اليوم .

لقد عدت إلى منزلى وأنا أطير من الفرح والسعادة ، وعقلى يستعيد كل كلمة نطق بها ..

إنه يحبنى ..

يحبنى ..

يحبنى ..

ولكن فجأة ، عادت صورة (ليلى) ترتسم فى خيالى ..

وعاد ذلك السؤال البغيض يمزّق قلبى ..

كيف يحبك ، وهو غارق فى حبها ؟! ..

القلب لا يحب مرتين ..

هكذا علمونا فى صغرنا ..

وهكذا يقول قلبها ..

ومرة أخرى ، انتزعت (ليلى) فرحة قلبها ..

مرة أخرى حرمتها من السعادة بمن تحب ..

وبدلا من أن يرقص قلبها طربا لكلماته ، بات يبكى بدموع من الدم ؛ لأنه ليس لها ..

ولكن هذا لم يمنعها من التفكير فى أمره ..

وفى كلماته الأخيرة ..

النجاح وحده لا يكفى .. المهم أن يحصل المرء على عمل جيد ، وعلى حياة عملية ناجحة ..

فكرت فى كلماته طويلا وكثيرا ، قبل أن تتجه إلى مكتب والدها ، الذى استقبلها بابتسامة كبيرة كعادته ، وهو يقول :

ـ أهلا يا (هبة) .. كيف حالك ، وكيف تسير أيام الإجازة معك ؟!

ردّدت تحيته ، ثم قلت دون مقدمات ، وأنا أضع أمامه بيانات (عمر) :

ـ أبى .. أريد منك أن تجد وظيفة فى شركاتك لهذا الشاب .

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وألقى نظرة على بيانات (عمر) فى اهتمام ، قبل أن يسألنى :

ـ ما مؤهلاته بالضبط ؟

أجبته بسرعة :

ـ سيحصل على شهادة (الليسانس) بعد شهر واحد .

ارتفع حاجباه مرة أخرى ، ثم هزّ رأسه ، وسألنى :

ـ لماذا هذا الشاب بالذات ؟!

خفضت عينىّ فى خجل وأنا أجيب فى خفوت :

ـ يهمنى أمره .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية ، وهو يغمغم :

ـ آه .. فهمت .

ثم اعتدل فى مجلسه ، واستطرد بلهجة رئيس مجلس الإدارة الحاسمة :

ـ يمكنك أن تطمئنيه ، فلو حصل على (الليسانس) هذا العام ، سيجد وظيفة محترمة فى انتظاره .

قفزت أتعلّق بعنقه ، وغمرت وجهه بالقبلات ، فاتسعت ابتسامته الحانية ، وهو يضمنى إليه فى رفق ، وكأنما يعلن موافقته على ارتباطى بـ (عمر) ، دون أن يسألنى عنه أو عن أسرته ومستواه الاجتماعى ..

نفس ما كان يفعله ، كلما راقت لى لعبة ما فى طفولتى ..

(هبة) تحتاج إلى هذا الشىء ..

وهذا سبب كاف لحصولها عليه ..

وأصبحت أعد الساعات والدقائق والثوانى ، فى انتظار لحظة ظهور النتيجة ، لأزف إلى (عمر) البشرى .

بشرى حصوله على عمل فى شركات والدى ..

ولأننى أنتظر ، مرّت الدقائق كالساعات ، والأيام كالشهور ، حتى خُيّل إلىّ أنه قد مرّ دهر كامل ، قبل أن أهرع إلى الكلية لألتقى به ، ونطالع معًا نتيجته .

وكان لقاؤنا رائعًا ..

بالنسبة لى على الأقل ..

لقد تصافحنا فى حرارة ، وأطلّت اللهفة من عينيه ، وهو يقول فى رصانة :

ـ أهلاً يا (هبة) .. أوحشتنى كثيرًا .

أما أنا ، فكدت ألقى نفسى بين ذراعيه ، من شدة لهفتى إليه ، وتخضّب وجهى بحمرة الخجل ، وأنا أقول :

ـ أنت أوحشتنى أكثر .

وذهبنا معًا لرؤية النتيجة ..

ونجح (عمر) ..

وفى غمرة سعادته بنجاحه ، قلت له فى حماس :

ـ لقد حصلت لك على وظيفة .

تطلّع إلىّ بدهشة ، فأخبرته بالأمر كله ، وأطلّ تأثر واضح من عينيه ، وهو يتطلّع إلى عينىّ ، قائلاً :

ـ (هبة) .. ماذا كان يمكننى أن أفعل بدونك ؟

كانت هذه أروع عبارة سمعتها من بين شفتيه ..

ماذا كان يمكن أن يفعل بدونى ؟! ..

ألا يعنى هذا أننى متميّزة ؟! ..

أننى أفضل منها ..

من (ليلى) ؟!

يومها فقط شعرت أننى تفوّقت عليها ، وأننى أصبحت أحتلّ فى قلبه مكانة خاصة لن يمكنها الوصول إليها قط ..

ولكن ما إن حلّ الليل ، حتى عاد الشعور بالقلق ينتابنى ..

من أدرانى أنه مازال يعتبرنى أفضل (أخت) فى الدنيا ، وأنها وحدها تحتل مكان الحبيبة فى قلبه ؟! ..

من أدرانى أننى لست سوى صديقة عزيزة ، تقدّم الخدمة تلو الخدمة لصديقها ، وأننى لم أحتل فى قلبه قط موقع الحبيبة ؟!

ذلك الموقع الذى ظفرت به (ليلى) ..

(ليلى) ابنة عمه ..

وحبيبته ..

أقلقتنى هذه الخواطر والأفكار ، طوال اليومين التاليين ، وانتزعت منى فرحتى وسعادتى بكلماته وموقفه ، حتى علمت من أبى أنه قد تسلّم عمله بالفعل فى واحدة من الشركات ، بمرتب لا يحلم به من يسبقه بسنوات من الخبرة .

وأن هذا من أجل خاطرى وحدى ..

ولأن لهفتى لرؤيته تنتصر دومًا على كل مشاعرى الأخرى ، قرّرت أن أذهب لتهنئته فى مكتبه الجديد ..

وذهبت ..

ارتديت يومها أفضل أثوابى ، وكأننى فى طريقى إلى حفل اختيار ملكة جمال (مصر) ، لأننى كنت أشعر فى أعماقى بأننى

فى منافسة دائمة مع حبيبته القديمة ..

مع (ليلى) ..

كنت واثقة من أننى أجمل وأفضل منها ، إلا أننى لم أستطع التغلّب على ذلك التوتر العنيف فى أعماقى تجاهها ، وأنا فى طريقى إليه .

وعندما وصلت إلى مكتبه ، كان قلبى يخفق فى عنف شديد ، وتوترى يبلغ ذروته ، وحنقى على (ليلى) يقف على قمة الغضب والثورة ، و ..

ودون أن أطرق الباب ، دفعته لأدلف إلى مكتبه ..

كان يولينى ظهره ، ويتحدّث عبر الهاتف فى اهتمام شديد ..

وسمعت اسم (ليلى) على لسانه ..

لست أدرى ماذا أصابنى ، عندما سمعته يردّد هذا الاسم ..

لقد تفجّرت كل توتراتى وانفعالاتى ، ووجدت نفسى أصرخ بلا وعى :

- (ليلى) ؟! .. (ليلى) مرة أخرى ؟!

التفت إلىّ فى دهشة ، وأشار إلى سمّاعة الهاتف ، قائلاً :

- إنها زوجة عمى .. أم (ليلى) ، تهنئنى بالوظيفة ، و ...

صرخت بكل غضب الدنيا :

- (ليلى) .. (ليلى) .. ألا يمكنك التفكير فى سواها ؟!

اتسعت عيناه فى شدة ، واعتذر لزوجة عمه فى ارتباك ، وأنهى المحادثة ، ثم نهض إلىّ يسألنى فى حيرة متوترة :

- (هبة) .. ماذا أصابك ؟!

ويبدو أن التفكير فى (ليلى) لعدة أيام متواصلة ألهب أعصابى بحق ، فقد وجدت نفسى أصرخ فى وجهه ثائرة :

ـ ما الذى فعلته (ليلى) هذه من أجلك ؟! .. أنا فعلت كل شىء .. أنا وحدى .. نقود أبى وثروته هما السبب فى كل ما وصلت إليه حتى الآن ..

اتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يحدّق فى وجهى غير مصدّق ، ولكننى واصلت فى عصبية زائدة :

ـ لقد أحضرت آلة تصوير يابانية خصيصًا من أجلك ، بدلاً من آلة التصوير السخيفة التى تملكها ، وصنعت لك اللافتات الدعائية ، التى منحتك ذلك الفوز الساحق فى انتخابات اتحادات الطلاّب ، وجعلت الأستاذ (رفقى) يفتتح معرضك ، وأجبرت والدى على شراء كل صورك من أجل نتيجة العام الجديد ، وبأكبر ثمن ممكن ، كما أجبرته على منحك تلك الوظيفة ، التى لم تكن تحلم بمثلها ، ولا بالمرتب الذى تحصل عليه منها .. أنا فعلت من أجلك كل شىء ، وفى النهاية لا تفكّر إلا فى (ليلى) هذه .. (ليلى) وحدها .

تلاشت نظرة الارتياع من عينيه ، وانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ كفى .

صرخت فى وجهه :

ـ كلاّ .. لن أكف .. ينبغى أن تعلم أن (ليلى) لم تكن لتمنحك نصف .. أو حتى عُشر ما منحتك أنا إياه .. (ليلى) لم ..

أمسك كتفىّ فجأة فى قوة ، وارتجفت الكلمات على شفتيه فى

غضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ (ليلى) لم يعد لها وجود .

رجتنى كلماته حتى الأعماق ، فحدقت فى عينيه مردّدة :

ـ لم يعد لها وجود ؟!

أجابنى فى عصبية شديدة ، لم أعهدها منه قط :

ـ نعم .. (ليلى) لم يعد لها وجود .. (ليلى) ماتت .

انتفض جسدى كله فى عنف ، وأنا أهتف ذاهلة :

ـ ماتت ؟!

تخلّى عن كتفىّ ، وهو يقول فى توتر :

ـ نعم .. (ليلى) ماتت قبل ان ألتقى بك بعام كامل .. ماتت بسبب سائق (أتوبيس) أرعن .

اتسعت عيناى فى شدة ، وأنا أتمتم :

ـ ولكن تلك الصورة فى المعرض !!

أشاح بوجهه ، وهو يقول فى مرارة :

ـ لو سألت ، لعلمت أن تلك الصورة تتصدّر كل معارضى .. إنها الصورة الوحيدة التى التقطتها لها .

ثم التفت يرمقنى بنظرة نارية ، مضيفًا :

ـ التقطتها لها بآلة التصوير القديمة .

انهار كيانى كله فى أعماقى ، وأنا أتطلّع إليه فى ذهول ، فى حين عاد هو إلى مكتبه فى بطء ، وجمع أشياءه القليلة من فوقه ، ثم اتجه إلى الباب فى صمت ، وأدار عينيه ، ليلقى علىّ نظرة أخيرة ..

نظرة جمدتنى فى مكانى ، لكل ما تحمله من لوم وحزن وعتاب واستنكار ، و ...

وحب ..

نعم .. حب ..

فى تلك اللحظة فقط أدركت أن (ليلى) لم تنافسنى فى قلبه قط ..

ربما كانت حبيبته فيما مضى ، ولكنها لم تعد كذلك الآن ..

لقد كان يحبنى أنا طوال الوقت ..

أنا ..

ولست أدرى لماذا تجمدت فى مكانى ، والتصقت قدماى بالأرض ، وهو يغادر المكان ؟!..

لماذا لم أقفز لأتعلق به ، وأصرخ بأننى لم أقصد أو أعنى كلمة واحدة مما قلتها له ؟!..

وأننى أحبه بكل جوارحى ..

بكل كيانى ..

بكل لهفتى ورغبتى كأنثى ..

لست أدرى حتى هذه اللحظة كيف تركته يرحل ؟!..

كنت أعلم أننى جرحت كرامته ، ومزقت قلبه بلا رحمة ..

وأنه لن يغفر لى هذا قط ..

لقد رحل (عمر) ..

لم يرحل من الشركة وحدها ، ولكنه رحل من (القاهرة) كلها ..

حتى أسرته لم تكن تعلم إلى أين ذهب ..

كل ما يعلمونه هو أنه اتخذ قراره بأن يعمل وينجح ..

وبدون (هبة) ..

بدون ثروة والدها واتصالاته ..

ومن مدن شتى كانت تصلهم رسائله ، التى تبشرهم بنجاحه فى مجال التصوير ، وفى سعادته بعمله الجديد ..

أما أنا ، فقد وصلتنى منه رسالة لم يكتبها ..

رسالة أدركتها منذ اللحظة التى ترك فيها العمل ..

رسالة تقول : إن قلبه ليس للبيع ..

لقد أحبنى لأننى (هبة) ، وليس لأننى ابنة رجل ثرى ، يمكنها أن تمنحه كل شىء فى الدنيا ..

إنه لم يكن ينشد آلة تصوير فاخرة ، أو لافتات دعائية أنيقة ، أو وظيفة محترمة براتب ضخم ، عندما ربط قلبه بقلبى ..

فقط ، كان ينشد حبى ..

الحب الخالص النقى ..

الحب الذى لم أنجح فى منحه إياه ..

ولم أفز به منه ..
لقد بذلت قصارى جهدى ، لمعرفة ، أين يعمل (عمر) ويقيم ..
ولكننى فشلت ..
أرجوكم ، ابحثوا عنه معى ..
أبلغوه أننى فهمت رسالته ..
وأننى أحبه ..
وأريده ..
وبأى ثمن .

* * *

[تمت بحمد الله]

اختبر معلوماتك

فى هذه المرة سيكون اختبار المعلومات مختلفًا ..
سيتجه كله إلى جهة واحدة ..
العلم ..
فكل الأسئلة ستنحصر فى المجال العلمى ..
اقرأها جيدًا ، واستوعب المعلومة فى عناية ، ثم ابذل جهدك للبحث عن الجواب الصحيح ، لتسأل نفسك فى النهاية ..
هل أنت مثقف ..
علميًا ؟! ..

* * *

١ ـ جسيم أو كمّ من الطاقة الضوئية ، مشتق من نظرية الكم لـ (ماكس بلانك) ، ونظرية الطاقة لـ (ألبرت أينشتين) ، التى تفرض أن الإشعاع يبعث ويمتص فى كميات ، ويسرى بسرعة الضوء ، ويطلق على هذا الجسيم اسم :

□ الإليكترون . □ الفوتون . □ الذرة

٢ ـ وحدة كهربائية لقياس سعة الموصّل أو المكثف ، يعرف بأنه الزيادة فى جهد الفولت الواحد ، نتيجة لإضافة كولوم واحد ، وتعرف هذه الوحدة بـ :

□ الفاراد . □ الأوم . □ ألوات .

٣ ـ ميل السائل إلى الارتفاع أو الهبوط ، فى أنبوبة ضيقة جدًا ، مغمورة فيه ، هو ظاهرة علمية ، يُطلق عليها اسم :

□ الخاصية الشعرية . □ التوتر السطحى . □ الطرد المركزى .

٤ ـ هى الطبقة الأخيرة من جدار العين ، وتتكوّن من طبقة رفيعة من الأعصاب ، وفيها تستقبل انطباعات الضوء ، وتنتقل إلى الدماغ عن طريق العصب البصرى ، وهى :

□ القزحية . □ القرنية . □ الشبكية .

٥ ـ قدرة المادة على خدش غيرها من السطوح ، وعلى مقاومة التشوه والبرى والنقرويضم القطع ، هى ظاهرة فيزيائية ، يطلق عليها اسم :

□ الصلابة . □ الصلادة . □ القوة .

٦ ـ صمغ متحجّر أصفر اللون ، يشتق من انواع متميزة من الصنوبريات ، ويتم الحصول عليه من مناجم فى (بروسيا)

الشرقية ، كما يوجد على شواطئ البحار ، يستعمل كحجر كريم ، فى أغراض الزينة والزخرفة ، وهو :

□ الماس . □ الزبرجد . □ الكهرمان .

٧ ـ الجسم الأساسى للمادة ، كشفه (شادويك) عام ١٩٣٢ م ، وله كتلة تزيد بقليل على كتلة البروتون ، إلا أنه ليست له شحنة كهربائية ، لذا فهو لا يتأثّر بالقوى الكهربائية ، وهو :

□ النيوترون . □ البوزيترون . □ النيجاترون .

٨ ـ عناصر لها بريق معدنى ، وقابلية للطرق والسحب . وهى جيدة التوصيل للحرارة والكهرباء ، وهى موجبة التكهرب فى المعتاد . ويطلق عليها اسم :

□ المعادن . □ الفلزات . □ الأحجار الكريمة .

٩ ـ مصطلح يطلق على الشد الذى يحدث فى سطح السائل ، نتيجة القوى الجزيئية العمودية عليه ، والتى تشده إلى داخل السائل ، وتجبره على السلوك كما لو كان غشاء ممدودا ، وهذا المصطلح هو :

□ التوتر السطحى . □ قوة الشد . □ التحوصل .

١٠ ـ عنصر غازى ، يقع فى الصف الخامس فى الجدول الدورى ، كشفه (رذر فورد) عام ١٧٧٢ م ، عدده الذرى ٢٧ ، وهو من أهم مكونات الغلاف الجوى ، وتبلغ نسبته فى الهواء العادى ٧٨,٠٣٪ بالحجم ، وهو :

□ الأكسجين . □ ثانى أكسيد الكربون . □ النيتروجين .

١١ ـ تكثيفات هائلة لمادة معلّقة فى الفضاء ، بينها عدد كبير متوهج ويمكن رؤيته من الأرض ، ومن أبرز أمثلتها الشمس ، ويطلق عليها اسم :

□ الكويكبات . □ الكواكب . □ النجوم .

١٢ ـ جهاز يتركّب من أميتر حساس ، ومجموعة من المقاومات وبطارية ، ويستعمل لقياس التيار الكهربى ، أو فارق الجهد ، أو المقاومة فى دوائر التيارات المستمرة أو المتردّدة ، ويُطلق على هذا الجهاز اسم :

□ المانوميتر . □ الأفوميتر . □ اسنيجمو مانوميتر .

١٣ ـ الجزء الخارجى ، أو الطبقة الخارجية لسيتوبلازم الخلية الحية ، وهى طبقة شبه صلبة ، وتتدرج حتى تصبح أكثر سيولة فى الطبقة الداخلية ، ويمكن رؤيتها فى بعض الكائنات الحية مثل الأميبا ، وهى :

□ الإكتوبلازم . □ الإندوبلازم . □ الميتوكوندريا .

١٤ ـ يطلق على الوزن النسبى لذرات عنصر ما ، مقارنة بذرات عنصر آخر اسم :

□ الوزن الجزيئى . □ الوزن الذرى . □ الوزن المكافئ .

١٥ ـ أجسام صغيرة رائقة ، يبلغ حجمها ثلث حجم خلايا الدم الحمراء تقريبًا ، أو أقل من هذا ، ويحتوى المليمتر المكعّب من الدم على ثلاثمائة ألف منها ، ولها فائدة عظمى فى سد الجروح ، ومنع النزيف ، وهى :

□ الهيموجلوبين . □ كرات الدم البيضاء . □ الصفائح الدموية .

١٦ ـ علم يبحث فى أصل الأرض وتاريخها التركيبى والطبيعى ، وكذلك المواد التى تتكوّن منها ، وجميع التغيرات التى وقعت فى أثناء تكوّنها وتطوّرها ، وهذا العلم هو :

□ الفسيولوجيا . □ الجيولوجيا . □ الأنثرو بولوجيا .

١٧ ـ أصغر كواكب المجموعة الشمسية ، وأقربها إلى الشمس ، وهو أكثر الكواكب صعوبة ، من حيث الرؤية بالعين المجرّدة ، فهو لا يبقى طويلاً فوق الأفق ، قبل الشروق أو بعد الغروب ، وهو :

□ عطارد . □ الزهرة . □ المريخ .

١٨ ـ فيزيقى إيطالى المولد ، وأحد العلماء البارزين فى العصر النووى ، فقد قذف اليورانيوم بنيوترونات بطيئة عام ١٩٣٤ م ، وأنشأ العنصر رقم ٩٣ ، وبعدها بأربع سنوات نال جائزة (نوبل) فى الفيزيقا ، وهذا الفيزيقى هو :

□ ماكس بلانك . □ ألبرت أينشتين . □ أنريكو نيرمى .

١٩ ـ شكل رباعى ، كل ضلعين متقابلين فيه متوازيان ومتساويان ، وارتفاع الأضلاع هو طول العمود النازل من أى رأس فيه ، على الضلع المقابل لهذا الرأس ، ومساحته تساوى حاصل ضرب قاعدته فى ارتفاعه ، وهذا الشكل الهندسى هو :

□ متوازى المستطيلات . □ متوازى الأضلاع . □ المسدّس .

٢٠ ـ صاحب نظرية قديمة للتطوّر ، تعتمد على مبدأ « العضو المستعمل ينمو ، والعضو المهمل يضمر » ، بحيث تتطوّر الكائنات الحية عن طريق استعمال بعض الأعضاء وإهمال الأخرى ، ولقد

فشلت نظريته فى تفسير تطوّر الكائنات عن طريق الوراثة ، وهذا العالم هو :

□ لامارك . □ داروين . □ فرويد .

* * *

من المؤكّد أنكم لاحظتم أن اختبار المعلومات يختلف بالفعل هذه المرة ..

هيا .. راجعوا كل معلوماتكم العلمية ، وأجيبوا عن الأسئلة ، ثم ارجعوا للحلول فى آخر الكتاب ، وستعرفون جواب السؤال ..

أأنتم مثقفون .. علميًا ؟!

* * *

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

د. نبيل فاروق

ملخص ماسبق نشره

نجح جاسوس مصرى فى الحصول على صور دقيقة ، لعدد من الوثائق الإسرائيلية البالغة السرية ، من قلب مطار (تل أبيب) الحربى ، ثم انكشف أمره فى اللحظات الأخيرة ، وطارده رجال الشرطة الحربية الإسرائيلية ، فما كان منه إلا أن أخفى (الميكروفيلم) فى قائم إطار إحدى المقاتلات الإسرائيلية ، قبل أن يلقى مصرعه .

وتم إسناد مهمة استعادة ذلك (الميكروفيلم) إلى رجل المخابرات المصرى (نسيم) ، الذى استعان بأفضل أفراد فريقه ..

(فاى) ..

وهبط الشاب بمظلته فى الجزء المحتل من (سيناء) ، خلف الممرات ، حيث ينتظره البدوى (صالح) ، الذى سيعاونه للوصول إلى (تل أبيب) ..

ولكن الأمور تعقّدت منذ اللحظة الأولى ..

لقد كشف اثنان من رجال الدورية أمر هبوط الشاب ، بمصادفة بحتة ، وأطلقا إشارة إنذار ، لإبلاغ الجميع بوجود جاسوس مصرى فى قلب (سيناء) .

وكان على (فاى) أن يخوض معارك بالغة العنف ؛ ليحافظ على وجوده ، ويواصل المهمة التى هبط من أجلها ، حتى إنه تصدّى لهليوكوبتر حربية إسرائيلية ، فى صراع بالغ الخطورة ..

ثم ظهرت ست سيارات جيب ، وعندما استعدّ الشاب لمواجهتها بالهليوكوبتر الحربية ، كانت هناك مفاجأة فى انتظاره ..
لقد ظهرت ثلاث طائرات هليوكوبتر أخرى فى مواجهته ..
ولم يعد أمام الشاب سوى إجراء واحد ..
لقد ضغط زر إطلاق النيران ، فى قمة عصا القيادة ، و ..
واشتعل الجحيم فى سماء (سيناء) .

٥ ـ الجحيم ..

« تلقينا رسالة لاسلكية شفرية من (سيناء) .. »

انتفض جسد (نسيم) فى انفعال ، عندما سمع هذه العبارة ، بعد دقيقة واحدة من عودته إلى المطار ، فاندفع نحو ضابط اللاسلكى ، يسأله فى لهفة :

ـ أين هى ؟!

ناوله الضابط الرسالة ، فاختطفها بسرعة ، وقرأ كلماتها فى توتر ملحوظ ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ، ويغمغم :

ـ اللعنة ! .. ليس بهذه السرعة .

سأله الطيّار فى اهتمام :

ـ ماذا حدث ؟!

مطّ (نسيم) شفتيه ، وأجاب فى صرامة ، وهو يدس الرسالة فى جيبه :

ـ ليس هذا من شأنك .

ودون أن يبالى بالدهشة البالغة ، التى ارتسمت على وجه الطيّار ، اتجه إلى السيارة التى تنتظره ، وقال لسائقها فى شىء من العصبية ، وهو يجلس فى مقعدها الخلفى :

ـ عد بنا إلى الإدارة على الفور .

انطلق السائق بالسيارة مباشرة ، قبل أن يغلق (نسيم) بابها خلفه ، ولم يعلّق هذا الأخير على ما حدث ، وهو يخرج الرسالة من جيبه ، ويعيد قراءة كلماتها ، التى تقول :

« ظروف طارئة ، حالت دون تنفيذ الجزء الأوّل من الخطة بنجاح .. افترقنا بالقرب من نقطة الهبوط .. أنا فى طريقى إلى (القصيمة) ، وسألتقى بالشاب فى (بئر سبع) .. إذا ما نجح فى تجاوز الموقف الحالى .. ثلاث طائرات هليوكوبتر وست سيارات (جيب) عسكرية فى الموقع .. الشاب يقود هليوكوبتر إسرائيلية .. دعاؤكم له .. » (صالح) .

وعاد حاجبا (نسيم) ينعقدان فى شدة ، وذهنه يحاول رسم صورة لذلك الموقف شديد التعقيد ..

(فاى) يقود هليوكوبتر إسرائيلية ، ويواجه جيشًا صغيرًا من الإسرائيليين ..

ست سيارات جيب بجنودها ، وثلاث طائرات هليوكوبتر !! ..

تُرى كيف يمكن أن يتعامل الشاب مع كل هذا ؟! ..

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

وعبثًا ، بذل (نسيم) جهدًا يفوق العادة ، فى محاولة للاسترخاء فى مقعده ، والسيارة تنطلق به نحو إدارة المخابرات ، ولكن ذهنه لم يكف لحظة واحدة عن التفكير فى ذلك الجحيم ، الذى اندلع حتمًا هناك ..

فى قلب (سيناء) ..

* * *

من حسن حظ الشاب ، أن طائرات الهليوكوبتر الإسرائيلية الثلاث لم تفهم فى البداية ، ما يفعله ، ولم يستوعب قادتها ذلك المسار

العجيب الذى اتخذته طائرته ، التى بدت لهم وكأنها تنقضّ عليهم مباشرة ..

ثم استوعبوا الموقف كله دفعة واحدة ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

استوعبوه مع رصاصات الهليوكوبتر التى يقودها الشاب ، عندما انطلقت نحوهم بلا هوادة ..

ومع الانقضاضة المباغتة الأولى ، أصابت رصاصات الشاب ذيل الهليوكوبتر (ع) ، ونسفت مروحة الهليوكوبتر (ز) ، قبل أن تميل فى مهارة ، محاولة اللحاق بالهليوكوبتر (س) ، التى أدرك قائدها الموقف فى اللحظة المناسبة ، فابتعد بها عن مرمى النيران ، وهو يهتف عبر اللاسلكى :

ـ من المروحية (س) إلى القيادة .. خيانة .. خيانة .. المروحية (و) تنقضّ علينا .. (ز) و(ع) أصيبتا . خيانة .

كان قائد الهليوكوبتر (س) مقاتلاً محترفًا ، تلقّى تدريبات طويلة مكثّفة ، حول قتال الهليوكوبتر والمواجهات المباشرة ، مما مكّنه من مراوغة الشاب فى مهارة ، وجعله ينجح فى الإفلات منه ، والدوران فى دورة واسعة لينقضّ بدوره عليه .

ولكن (فاى) فاجأه بعدم الاشتراك فى القتال ..

لقد انتبه إلى أن مسار سيارات (الجيب) العسكرية الست ستدفعها نحو سيارة (صالح) حتمًا ، وأن هذا سيضع البدوى فى مأزق شديد ، قد يؤدى إلى وقوعه فى أيدى الإسرائيليين ، وكشف أمره ، وكل ما يستتبع ذلك من نتائج ..

لذا فقد اندفع بغتة نحو سيارات (الجيب) ، وراح يمطرها برصاصات الهليوكوبتر ، فى مسار نصف دائرى ، قبل أن يعود لمواجهة الهليوكوبتر (س) .

وفى غضب ، تطلّع قائد الهليوكوبتر الإسرائيلى إلى سيارات (الجيب) الأربع ، التى دمرتها رصاصات الشاب ، وإلى طائرتى الهليوكوبتر ، اللتين تحطمتا على رمال (سيناء) ، ثم هتف ، وهو ينقض على الهليوكوبتر (و) :

ـ اللعنة ! .. ستدفع الثمن أيها الجاسوس القذر .. ستدفع الثمن .

وضغط زناد مدفعى الهليوكوبتر ..

وانطلقت النيران ..

وبالنسبة للشاب ، بدا صوت ارتطام الرصاصات ، بجسم الهليوكوبتر التى يقودها ، أشبه بدوى مطارق قوية عنيفة ، فوق براميل معدنية فارغة ، واخترقت رصاصتان زجاج الهليوكوبتر الأمامى ، ومرقتا على قيد سنتيمترات من جسده ، قبل أن تستقر إحداهما فى خلفية صندوق القيادة ، فى حين نسفت الثانية جزءا من مسند مقعده ..

ولكن أجهزة القيادة بقيت على حالها ..

ولهذا ، فقد مال الشاب بالهليوكوبتر ، وانخفض بها على نحو مباغت ، ثم انقضّ على الهليوكوبتر الأخرى مباشرة ..

وارتفع حاجبا قائد الهليوكوبتر (س) فى دهشة ، وهتف عبر اللاسلكى :

ـ ماذا يفعل هذا المجنون ؟!

هتف بها ، وضغط زر إطلاق النار ، وانطلقت رصاصات الهليوكوبتر نحو الشاب ، الذى ضغط زر إطلاق النار فى طائرته بدوره ، و ..

ولكن مدفعى الطائرة لم ينطلقا ..

لقد أصابت رصاصات خصمه جسم طائرته فى عنف ، ونسفت جزءا من ذيلها ، وقاعدة مروحتها ، فى حين لم تنطلق من طائرته رصاصة واحدة ..

وفى حماس عنيف ، صرخ الإسرائيلى :

ـ ظفرت بك أيها الجاسوس اللعين .. ظفرت بـ ..

اختنق الجزء الأخير من الصرخة فى حلقه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، عندما رأى هليوكوبتر الشاب تنقضّ عليه ، انقضاضة انتحارية رهيبة ، فغمغم مرتجفا :

ـ اللعنة ! .. إنه ..

حاول بقدر استطاعته تفادى الارتطام الوشيك ، فجذب عصا القيادة ، وارتفع بالهليوكوبتر ، و ..

ولكن هليوكوبتر الشاب لحقت به فى اللحظة الأخيرة ..

وأمام عيون الناجين ، من سيارات الجيب الإسرائيلية ، ارتطمت طائرتا الهليوكوبتر بمنتهى العنف ، فى سماء (سيناء) .

وكان الانفجار عنيفاً ..

وهائلاً ..

* * *

انعقد حاجبا رجل (الموساد) (بيجال يائيل) فى شدة ، وهو يقف فى برج المراقبة ، فى مطار (تل أبيب) ، وعيناه تجوبان أرض المطار ، وحظائر الطائرات فى توتر شديد ، واهتمام بالغ .

كان قد كوّن صورة تقريبية لما حدث ، فى تلك الدقائق التى اتكشف فيها أمر الجاسوس المصرى ، وحتى تم إلقاء القبض عليه فى مهبط الطائرات ، وراح بذهنه يجاهد لاستنتاج مالم يره الشهود ، وما حدث فى الثوانى القليلة ، التى أخفى فيها الرجل (الميكروفيلم) .

وبمقدرة فذّة ، بدأ شريط وهمى يعرض فى عقله ، متخيّلاً الرجل وهو يعدو خارج المكان ، ويتجه نحو مهبط الطائرات ، والرصاصات تطارده ، حتى يسقط ، و ...

وازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ..

لقد سقط الجاسوس عند إحدى الطائرات ..

وبالقرب من إطاراتها بالتحديد ..

وهناك انهار جسده ..

وفقد وعيه ..

وفى خفوت شديد ، تمتم (بيجال) بكلمة واحدة ، وعيناه تستديران إلىٰ نقطة بعينها من المهبط :

ـ هناك ..

ولأكثر من دقيقة كاملة ، تركّز بصره على تلك البقعة ، حيث بدا أثر دماء لم ترفع بعد ، وعاد ذهنه يعرض المشهد مرات ومرات ..

وفى أعماق عقله تكوّنت فكرة ..

فكرة عجيبة ، أشبه بما يحدث فى أفلام السينما ، ولكنها راحت تكبر وتنمو ، وتتصاعد من أعماق العقل إلى قمته ، وذهنه يؤيدها بعض الوقت ، ثم يعود لرفضها واستنكارها ، ثم لتأييدها ثانية ، حتى حسم لسانه الأمر ، وهو يلتفت إلى قائد البرج ، ويسأله فى اهتمام بالغ :

ـ كيف تهبط الطائرات هنا ؟

تطلّع إليه الرجل فى شىء من الدهشة ، قبل أن يجيب :

ـ بالطرق التقليدية بالطبع .

أجابه (بيجال) فى عصبية :

ـ لست أقصد هذا .. إننى أتساءل عن تنظيم الهبوط .. هل تهبط الطائرة نفسها فى المكان ذاته ، فى كل مرة ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بالطبع .. الطائرات تنطلق فى أسراب كما تعلم ، ثم تهبط على نحو منتظم ، فى أماكن محدودة ، تبعًا لرقم السرب ، وموقعه ، و ...

قاطعه (بيجال) ، وكأنه يتحدث إلى نفسه :

ـ فى أماكن محدودة .. عظيم .

ثم أشار إلى الطائرة (الفانتوم) ، الرابضة عند بقعة الدم ، مستطردًا :

ـ إذن فتلك الطائرة هناك ، هى نفس الطائرة ، التى كانت فى ذلك الموضع ، ليلة القبض على الجاسوس المصرى .

أومأ قائد البرج برأسه إيجابًا ، وهو يتطلع إليه فى حيرة ، فهز (بيجال) رأسه ، وتمتم فى شىء من الحماس :

ـ عظيم .. عظيم ..

تطلع إليه قائد البرج فى حيرة ، وتساءل عن سر اهتمامه الشديد بالطائرة (ف ـ ٢١٠) ، وأدهشه أن ألقى (بيجال) نظرة أخرى على الطائرة ، ثم اندفع يغادر البرج ، فى خطوات سريعة واسعة ، واتجه نحو الطائرة (ف ـ ٢١٠) ، وهو يغمغم لنفسه :

ـ من يدرى ؟ .. ربما ..

ولثوان ، وقف يتطلع إلى الطائرة فى صمت متردد ، ثم لم يلبث أن انحنى يتفحص إطاراتها ببصره فى اهتمام ، وهو يراجع تلك الفكرة العجيبة ، التى وقرت فى أعماقه ، و ..

« أدون (بيجال) .. خبر عاجل من (سيناء) .. » .

انطلق هتاف مساعده (زلفى) ، فانتزعه فجأة من أفكاره ، وجعله يلتفت إليه فى شىء من العصبية ، قائلا :

ـ أى خبر هذا ؟

لهث (زلفى) ، وهو يتجه نحوه فى خطوات سريعة ، أقرب إلى العدو ، قائلا :

ـ هناك جاسوس آخر .

التقى حاجبا (بيجال) ، وهو يقول فى توتر :

ـ جاسوس آخر ؟!

أومأ (زلفى) برأسه إيجابًا ، وازدرد لعابه ، قائلا :

ـ نعم يا أدون (بيجال) .. المصريون أسقطوا جاسوسًا آخر فى (سيناء) ، خلف الممرات ، ورجالنا يسعون للإيقاع به الآن .

سأله (بيجال) فى حدة :

ـ يسعون ؟! ، ولماذا لا يلقون القبض عليه مباشرة ، ماداموا قد كشفوا أمره ؟!

لهث (زلفى) ثانية ، وهو يقول :

ـ يبدو أن هذا ليس أمرًا سهلا .. إنه ليس جاسوسًا عاديًا على الأرجح .

انعقد حاجبا (بيجال) أكثر ، وهو يغمغم :

ـ ليس جاسوسًا عاديًا ؟!

ثم التفت إلى إطار الطائرة مرة أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ جاسوس مصرى غير عادى !! .. وفى هذا التوقيت بالذات !

وصمت بضع لحظات ، قبل أن يهز رأسه ، ويتطلع إلى (زلفى) ، قائلاً فى صوت صارم عميق :

ـ يبدو أن اللعبة تتعقد أكثر وأكثر يا (زلفى) .

قالها ، وتحرك فى خطوات واسعة سريعة كعادته ، فهتف به (زلفى) :

ـ إلى أين يا أدون (بيجال) ؟

أجابه (بيجال) ، وهو يتجه مباشرة إلى سيارته :

ـ يا له من سؤال ! .. إلى (سيناء) بالطبع يا رجل .

وعندما انطلقت بهما السيارة ، كانت تلك الفكرة العجيبة تتعمق فى رأس (بيجال) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

« (صالح) تركه هنا .. » .

نطق (نسيم) العبارة ، وهو يشير إلى نقطة بالقرب من (القصيمة) ، فوق خريطة ضخمة لصحراء (سيناء) ، قبل أن يتابع :

ـ وطبقاً لآخر ما لدينا من معلومات ، فقد تركه البدوى وهو يخوض قتالاً غير متكافئ ، فى تلك البقعة ، ولا أحد يدرى ما الذى انتهت إليه الأمور هناك .

تطلع زملاؤه إلى الخريطة فى اهتمام ، ثم قال أحدهم :

ـ الواقع أن الوضع الذى تصفه لا يبشر بالخير ، فذلك الشاب ،

مهما بلغت كفاءته ، مجرد فرد واحد ، لن يمكنه أبدًا أن يتصدى لثلاث طائرات هليوكوبتر ، وست سيارات (جيب) عسكرية محملة بالجنود ، ثم إنه بالنسبة لطبيعة الإسرائيليين ، ستكون هذه مجرد بداية .. إنهم على استعداد لدفع فرقة كاملة إلى المنطقة ، لو لم يظفروا به ، إذ إنهم لن يسمحوا قط بوجود جاسوس (مصرى) فى نطاقهم .

استمع إليه (نسيم) فى صمت ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ ذلك الشاب ، الذى تصفه بأنه مجرد فرد واحد ، ليس مقاتلاً عاديًا .. إنه فذ بكل المقاييس .. لقد أشرفت على تدريبه بنفسى ، وأعلم جيدًا أن بإمكانه أن يصنع ما يفوق توقعاتكم .

تبادلوا نظرة صامتة ، قبل أن يشير أحدهم بيده ، قائلاً :

ـ هذا ليس أحد أفلام الحركة الخيالية يا (نسيم) ، والشاب ليس بطله الخارق .

أجابه (نسيم) فى حزم أكثر :

ـ ولكنه يمتلك قوة إرادة فولاذية ، وإصرار لا حدود له ، ثم إنه يتميز بصفة مدهشة ، تجعله فى رأيى بطلاً خارقًا .

أطل التساؤل من العيون ، فأضاف فى صرامة :

ـ إنه يحب (مصر) .

نطقها ، فران على المكان صمت تام ، استمر لنصف دقيقة كاملة ، قبل أن يتنحنح أحد الحاضرين ، قائلاً :

ـ كلنا نحب (مصر) يا (نسيم) ، ولا نتردد لحظة فى التضحية بحياتنا من أجلها ، ولكن دعنا نتحدث بواقعية .. الشاب

بالفعل فى موقف لا يحسد عليه ، ونجاته منه ستكون أشبه بالمعجزة ، وحتى لو فعل ، هل تعتقد أن الإسرائيليين سيسمحون له بالاستمرار ؟! .. إن وجود جاسوس فى نطاقهم سيصيبهم بالجنون ، وسيدفعهم إلى مضاعفة إجراءات الأمن ثلاث مرات على الأقل ، مما سيجعل مهمته أشبه بمحاولة لاقتحام الجحيم من أوسع أبوابه .

التقى حاجبا (نسيم) فى حدة ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى بهذا ؟! .. هل تقترح إلغاء العملية ؟!

هزّ زميله رأسه نفيًا فى هدوء ، قائلاً :

ـ هذا سابق لأوانه بالتأكيد .. كل ما أقترحه هو أن ننتظر ، حتى نعرف ما انتهت إليه الأمور بالضبط .

أجاب (نسيم) فى صرامة شديدة :

ـ (فاى) سينجو بإذن الله .. لقد درّبته على مواجهة أصعب الظروف وأكثرها قسوة .

تبادل الرجال نظرة أخرى صامتة ، لم يغب مغزاها عنه ، فتابع بسرعة :

ـ أما بالنسبة للإسرائيليين ، فهناك خطة بديلة بالطبع .

ثم عاد يشير إلى الخريطة ، مستطردًا :

ـ فاختيارنا لموقع الهبوط لم يكن عشوائيًا ، ولم يتركّز على قربه من (القصيمة) ، وخلوه من الدوريات الإسرائيلية فحسب ، وإنما اخترناه لأنه قريب من الدرب الصحراوى الرئيسى ، الذى يقود إلى واحدة من القواعد الإسرائيلية العسكرية الرئيسية ،

القريبة من منطقة (عين قديس) ، بحيث يتصوّر الإسرائيليون ، فى حالة كشف أمر الشاب ، أن مهمته هى تدمير مخزن الذخيرة فى (عين قديس) ، وهذا سيدفعهم حتمًا إلى تكثيف تواجدهم فى تلك المنطقة ، فى حين سيغيّر الشاب عندئذ مساره إلى (مويلح) ، حيث ينتظره عميل آخر من عملائنا ، و ...

قاطعه فجأة صوت حازم ، يقول :

ـ لست أعتقد أنه هناك ما يستدعى الخوض فى كل هذه التفاصيل .

التفت الجميع إلى زميلهم ، الذى دلف إلى قاعة الاجتماعات على التو ، وأطلّ مزيج من التوتر والقلق واللهفة من عينى (نسيم) ، وهو يتطلّع إليه ، فتابع الرجل فى شىء من المرارة :

ـ لقد وصلتنا معلومات جديدة من (سيناء) .. لقد انتهى الأمر .

خفق قلب نسيم فى عنف ، والرجل يضيف :

ـ الشاب لقى مصرعه فى حادث ارتطام وانفجار طائرتى هليوكوبتر ، بعد أن أبلى بلاءً حسنًا للغاية ، و ..

ولم يسمع (نسيم) باقى العبارة ..

لقد تمزّق شىء ما فى أعماق قلبه ..

تمزّق بكل عنف ..

وكل قسوة .

* * *

٦ - سيناء ..

لم تكن نيران الحطام قد خبت بعد ، فى قلب (سيناء) ، عندما هبطت الهليوكوبتر ، التى تقلّ (بيجال) ، على رمال الصحراء ، وقفز منها هذا الأخير ، وهو يسأل أحد ضباط الجيش الإسرائيلى فى حزم :

- هل ألقيتم القبض على الجاسوس ؟

أدّى الضابط التحية العسكريةَ فى احترام ، وهو يجيب :

- لقد لقى مصرعه يا سيّدى .

سأله (بيجال) فى عصبيةَ :

- هل قتلتموه ؟! .. مَن أصدر ذلك الأمر الغبى ؟! .. كان ينبغى أن توقّعوا به حيًّا ، حتى يمكننا استجوابه ، ومعرفةَ هدفه ، و ...

قاطعه الضابط فى سرعةَ :

- إننا لم نقتله يا سيّدى .. هو قتل نفسه بنفسه .

انعقد حاجبا (بيجال) فى توتر متسائل ، فتابع الضابط :

- لقد انقضّ على طائرةَ هليوكوبتر أخرى ، على نحو انتحارى ، فارتطمت الطائرتان ، وانفجرتا ، وها هما ذان تحترقان على الرمال .

تطلّع (بيجال) إلى الحطام فى توتر شديد ، وهو يغمغم :

- انفجرتا ؟!

كان يشعر بحنق بالغ ، مع الخسائر الواضحة ، التى تحيط به من كل جانب ..

أربع سيارات (جيب) محترقة ..

أكثر من سبعة من الجنود لقوا مصرعهم ، ومثلهم أصيبوا فى مواضع مختلفة ..

وأربع طائرات هليوكوبتر تحطمت تماما ..

كل هذا فعله جاسوس ..

جاسوس مصرى واحد ..

والأسخف أنه لقى مصرعه ، قبل أن يتم استجوابه ، لمعرفة هدفه ، والغرض من هبوطه فى هذه البقعة بالذات ..

كان أكثر ما يستفز عقله ومشاعره ، هو أنه جاسوس واحد ..

لو أن المصريين أسقطوا مجموعة من الكوماندوز ، لبدا له هذا أكثر وضوحا ومنطقية ، ولتصور على الفور أنها كانت محاولة لتدمير مخزن الذخيرة ، بالقرب من (عين قديس) ..

ولكن جاسوسا واحدا ؟!!

عادت تلك الفكرة العجيبة تلح عليه فى إصرار ، وهو يسير فوق رمال الصحراء ، نحو حطام الطائرتين المرتطمتين ، وأسرع (زلفى) خلفه ، يقول :

ـ يبدو أن العملية قد انتهت ، قبل أن نصل .

سأله (بيجال) بغتة ، فى لهجة تشف عن توتر واهتمام زائدين :

ـ لماذا أرسل المصريون جاسوسا واحدا فى رأيك ؟!

بُهت (زلفى) للسؤال ، وارتبك بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ ربما لا تحتاج العملية إلى أكثر من رجل واحد .

سأله (بيجال) فى توتر :

ـ وما تلك العملية التى لا تحتاج لأكثر من رجل واحد ؟! .. ما طبيعتها ؟! ما نوعها ؟!

قلب (زلفى) كفيه فى حيرة ، وهو يغمغم :

ـ لست أدرى .. ربما ..

ولم يجد ما يكمل به عبارته ، ولكن (بيجال) لم ينتظر جوابه ، وهو يقول فى شىء من الانفعال ، وكأنما يحدث نفسه ، وهو يواصل السير نحو الحطام :

ـ لا يمكنك أن ترسل رجلا واحدا لنسف مخزن ذخيرة ، ولا للقيام بغارة انتقامية .. ثم إن مرحلة حرب الاستنزاف قد انتهت ، منذ زمن طويل ، والأمور شبه مستقرة من الناحية العسكرية ، بيننا وبين المصريين ، بعد حرب أكتوبر ، وفى تلك الفترة بالتحديد ، وهذا يعنى أن ذلك الرجل لم يهبط هنا للقيام بعمل عسكرى .

سأله (زلفى) فى شىء من الحيرة :

ـ لماذا هبط إذن ؟

صمت (بيجال) بعض الوقت ، وهو يقترب من الحطام ، قبل أن يجيب بنفس اللهجة المنفعلة :

ـ ألا يذكرك هذا بما كان يحدث فى الحرب العالمية الثانية ؟! .. راجع ما درسته عن تلك الفترة يا رجل ، وما لقنك إياه خبراؤنا ، فى أيام تدريبك الأولى ، وستدرك لماذا يهبط رجل واحد بمظلة ، فى منطقة خاضعة لنفوذ دولة أخرى ؟

توقّف (زلفى) دفعة واحدة ، وهو يهتف بانفعال :

ـ أتقصد أنها عملية جاسوسية ؟

التفت إليه (بيجال) فى بطء ، قائلاً :

ـ أليك تفسير آخر ؟!

صمت (زلفى) بضع لحظات ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، قبل أن يجيب فى حسم :

ـ كلا .

ثم تنهّد فى توتر ، وسأل :

ـ ولكن أية عملية تجسّس هذه ، التى يمكن القيام بها فى مكان كهذا ؟

أشار (بيجال) بيده ، قائلا :

ـ ليس من الضرورى أن تكون هذه المنطقة هى مسرح العملية .. إنها فقط منطقة صالحة للهبوط ، فالمهم أن يصل رجلهم إلى ما خلف خطوطنا ، ثم يتحرك بعدها بخطة مسبقة ، للوصول إلى المكان المنشود .

سأله (زلفى) :

ـ وما هذا المكان فى رأيك ؟

توقّف (بيجال) ، وامتدّ بصره بعيدا ، وهو يجيب :

ـ لو أن الفكرة التى تدور فى ذهنى صحيحة ، فأنا أعرف مسرح العمليات المنشود .

سأله (زلفى) فى لهفة شديدة :

ـ أين يا أدون (بيجال) ؟! .. أين ؟!

أجابه (بيجال) فى سرعة .

ـ نظريتى تقول : إن ذلك الجاسوس الأول ، قد أخفى (الميكروفيلم) قبل أن يفقد وعيه ، فى الـ ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحدق فى بقعة قريبة من رمال الصحراء ، فسأله (زلفى) .

ـ فى أى شىء يا أدون (بيجال) ؟!

لم يجب رجل (الموساد) عن تساؤله ، وإنما اندفع فجأة نحو البقعة ، التى تعلّق بها بصره ، وتلاقى حاجباه فى شدة ، وهو يحدّق فيها ، هاتفا :

ـ اللعنة ! .. اللعنة !

لحق به (زلفى) ، ولهث فى انفعال ، وهو يقول :

ـ ماذا حدث ؟!

أشار (بيجال) إلى بقعة الرمال ، وهو يجيب فى غضب :

ـ انظر .. كيف لم ينتبه هؤلاء الأوغاد إلى هذه الآثار ؟!

قالها ، وعقله يتخيّل ما حدث ، بناء على الآثار التى تركها فوق الرمال أمامه ..

وتكوّنت الصورة فى سرعة ..

صورة وهمية ، بدت فيها هليوكوبتر المصرى ، وهى تنقضّ على الهليوكوبتر الإسرائيلية الأخرى ، ثم يثب منها المصرى فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن يحدث الارتطام ، فيسقط فوق رمال الصحراء ، ويتدحرج فوقها لثلاثة أمتار ، والانفجار يدوى من فوقه ، والطائرتان تهويان على رمال (سيناء) ..

وبعين الخيال ، رأى (بيجال) المصرى ينهض من سقطته ، ثم يعدو مبتعدا عن المكان ، قبل أن يصل إليه الإسرائيليون ..

وفى حنق ساخط غاضب ، هتف الإسرائيلى :

ـ لقد خدعهم .. خدعهم جميعا .

هتف به (زلفى) فى توتر بالغ :

ـ من هذا الذى خدعهم ؟!

التفت إليه (بيجال) فى انفعال جارف ، وأمسك كفه فى قوة ، وهو يقول فى حدة :

ـ اتصل بأقرب مكتب لنا يا رجل ، وأخبرهم أننى أريد أفضل دليل فى المنطقة كلها .. أريد أبرع خبراء تقصى الآثر فى (سيناء) كلها .

ثم انعقد حاجباه وكأنما تعانقا ، وأطلت شياطين الغضب كلها من عينيه وصوته ، وهو يستطرد :

ـ فسأشن حربا شعواء على ذلك الجاسوس المصرى .. حربا لن أرضى لها إلا نهاية واحدة .. النصر .. النصر التام ..

وكان هذا يعنى أن الأمور قد انتقلت إلى مرحلة جديدة .. وعنيفة ..

* * *

فرك (صالح) كفيه فى توتر بالغ ، وهو يقول لشقيقه (أحمد) فى عصبية :

ـ لم يكن ينبغى أن أنصرف .. لم يكن ينبغى أن أتركه وحده قط ، مهما كانت الظروف .

ربت (أحمد) على كتفه محاولا تهدئته ، وهو يقول :

ـ الشاب تصرف بحكمة يا (صالح) .. لو أنك بقيت ، لوقع كلاكما فى قبضة الإسرائيليين ، وأنت تعلم ما يفعلونه ، فى مثل هذه الظروف .

عض (صالح) شفته السفلى قهرا ، وقال :

ـ ولكننى تركته وحده .. تخليت عنه ، وهو فى أمس الحاجة إلىّ .. تركته يواجه جيشا بمفرده .

تنهد (أحمد) قائلا :

ـ وماذا كان بإمكانك أن تفعله من أجله ؟

لوح (صالح) بكفيه ، هاتفا :

ـ أى شىء .. أى شىء .. كان يمكننى أن أساعده بقتل إسرائيلى واحد على الأقل .

قال (أحمد) فى صرامة :

ـ ثم ماذا ؟!

هتف (صالح) فى مرارة :

ـ ثم يحدث ما يحدث .. من يبالى بالموت أو الحياة ، فى مثل هذه الظروف ؟

وضرب صدره بقبضته فى حنق ، مستطردا :

ـ بتركى له أصبحت عارا على رأس كل بدوى .

ربت (أحمد) على كتفه ثانية ، وهو يقول :

ـ لقد فعلت ما كان ينبغى فعله يا رجل ، ولا داعى لأن تلوم نفسك على هذا النحو البالغ القسوة ..

هتف (صالح) :

ـ بل كان ينبغى أن ..

قبل أن يتمّ عبارته .. ارتفعت دقات حذرة من باب منزله ، فبتر حديثه ، واستلّ خنجره من حزامه بحركة عصبية ، وهو يلتفت إلى الباب ، فأمسك شقيقه يده ، قائلا :

ـ مهلا يا رجل .. لا تفقد سيطرتك على أعصابك على هذا النحو .

ثم اتجه نحو الباب ، قائلا :

ـ من الطارق ؟

أتاه صوت متوتر يجيب :

ـ إنه أنا أيها الأخ (أحمد) .. أنا (فائز) .. صديق (صالح) .

أعاد (صالح) خنجره إلى حزامه فى سرعة ، وهو يلقى نظرة على ساعة يده ، مغمغمًا فى قلق :

ـ (فائز) ؟! .. فى الثالثة والنصف صباحًا ؟!

أسرع (أحمد) يفتح الباب ، فدلف البدوى إلى المنزل فى سرعة ، وأغلق الباب خلفه ، وهو يلهث فى توتر ، قائلاً :

ـ الإسرائيليون لم يغمض لهم جفن الليلة .

جذبه (صالح) من ذراعه ، وهو يسأله فى عصبية :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه (فائز) على الفور :

ـ يقولون : إن قتالا عنيفا دار فى الصحراء ، بالقرب من بلدتنا ، ولا ريب فى أنك سمعت الانفجارات مثلى ، وهناك شائعة تقول إن جاسوسًا مصريًا هبط هناك ، وأن الإسرائيليين يحاولون القضاء عليه .

سأله (صالح) فى لهفة :

ـ يحاولون ؟! .. أتعنى أنهم لم يظفروا به بعد ؟!

أجابه (فائز) :

ـ بالتأكيد ، وإلا فلماذا فرضوا حظر التجوال ، منذ الواحدة والنصف صباحًا ، ولماذا منعوا أى شخص من دخول (القصيمة) أو الخروج منها ؟!

أدهشه ذلك البريق الظافر ، الذى أطلّ من عينى (صالح) ، وهو يقول فى حماس :

ـ عظيم .. عظيم .. حمدًا لله .

انعقد حاجبا (فائز) ، وهو يميل نحوه ، ويسأله فى قلق :

ـ (صالح) .. ألك صلة بما يحدث ؟

أسرع (أحمد) يجيب :

ـ وما شأن (صالح) بهذا ؟! .. إنه لم يغادر المنزل منذ غروب الشمس .

امتلأت ملامح (فائز) بالشك ، وهو يغمغم :

ـ حقًا ؟!

ـ تطلع إليه (صالح) فى صمت وتبادل كلاهما نظرة طويلة ، قبل أن يخفض (فائز) عينيه ، ويقول :

ـ ما دمت تقول هذا فهو صحيح .

ثم عاد يرفع عينيه إلى (صالح) ، ويربت على كتفه ، قائلا :

ـ على أية حال ، أنا رهن إشارتك فى أية لحظة يا رجل .

ابتسم (صالح) ، وهو يقول :

ـ أعلم هذا يا (أبو رابح) .

أومأ الرجل برأسه متفهمًا ، وصمت لحظة أخرى ، ثم قال :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن أعود إلى منزلى .

سأله (أحمد) فى قلق :

ـ وماذا ستفعل مع قواعد حظر التجوال ؟!

ابتسم (فائز) ، وهو يقول :

ـ نفس ما فعلته ، عندما أتيت إلى هنا .. اطمئن يا فتى .. مهما بلغت براعة هؤلاء الأوغاد ، لن يمكنهم إحكام السيطرة علينا قط .

ثم غمز بعينه ، مستطردًا :

ـ إنها مازالت أرضنا .

ولم يكد (فائز) ينصرف ، حتى التفت (أحمد) إلى شقيقه ، قائلا :

ـ هل تعتقد أن الشاب قد نجا حقًا ؟!

أجابه (صالح) فى حماس ، وهو يتجه نحو حجرته :

ـ بالتأكيد ، وإلا فلماذا يتصرف الإسرائيليون بكل هذه العصبية ؟!

وفتح باب الحجرة فى حركة حادة ، مستطردًا :

ـ لست أدرى بحق كيف أفلت منهم ، ولكنه فعلها ، والخطوة التالية لهذا ، هى أن ...

بتر عبارته بغتة ، وانطلقت من حلقه شهقة قوية ، وهو يرتد إلى الخلف فى عنف ..

ففى حجرته ، كانت تنتظره مفاجأة !!

مفاجأة مدهشة !!

* * *

« أنت على حق يا سيد (بيجال) .. » .

نطق خبير تقصى الأثر العبارة ، وهو يشير إلى الآثار على الرمال ، ثم اعتدل مستطردًا :

ـ شخص ما سقط هنا ، من ارتفاع خمسة أمتار تقريبًا ، ثم تدحرج حتى هناك ، وبعدها نهض ، وانطلق يعدو حتى تلك البقعة ، وبعدها تسلل فى حذر ، واتخذ طريقه نحو الجنوب .

أومأ (بيجال) برأسه متفهمًا ، قبل أن يسأل الخبير :

ـ هل يمكنك تعقب آثاره حتى النهاية ؟!

تردّد الرجل لحظات ، ثم أجاب :

ـ نعم .

قالها ، واستدرك فى سرعة :

ـ لو أنه لم يغادر منطقة الرمال .

تقارب حاجبا (بيجال) ، وهو يقول :

ـ دعنا نأمل ألا يكون قد فعل .

والتفت إلى مساعده (زلفى) ، قائلا :

ـ أحضر واحدة من تلك السيارات هناك .

أسرع (زلفى) لتلبية الأمر ، فى حين استدار (بيجال) إلى الخبير قائلا فى صرامة :

ـ أأنت واثق من قدرتك على تتبعه ؟

أجابه الخبير :

ـ كل الثقة يا سيّدى .. إنها مهنتى .

مطّ (بيجال) شفتيه فى عدم رضا ، لم يكن له ما يبرره ، وقال فى عصبية :

ـ أريد أن أنتهى من هذا بأسرع وقت ممكن .. لابد أن أعود إلى المطار .

سأله الدليل فى حيرة :

ـ أى مطار ؟!

صاح به فى غضب :

ـ لا شأن لك بهذا .. اهتمّ أنت بالبحث عن أية آثار أخرى .. هيا اذهب .

ابتعد الخبير فى سرعة ، فى حين أطلق (بيجال) زفرة عصبية ملتهبة ، وراح يتلفت حوله فى توتر ، وفكرته تكاد تهبط من عقله ؛ لتلتهم كيانه التهاما ..

لقد أرسل هؤلاء المصريون جاسوسهم لمهمة محدودة ..

مهمة قد تتوافق مع الفكرة التى تعربد فى أعماقه .

أرسلوه لاستعادة (الميكروفيلم) ..

ذلك (الميكروفيلم) ، الذى يجهل ما يحويه ، وما يحمله من أسرار ..

(الميكروفيلم) الذى يكاد يصيبه بالجنون ..

الذى ..

« السيارة يا أدون (بيجال) ..»

قطع صوت (زلفى) تسلسل أفكاره ، فالتفت إليه فى شىء من العصبية ، قائلا :

ـ أية سيارة ؟!

ارتبك (زلفى) ، وهو يقول :

ـ السيارة التى طلبتها .

رمقه (بيجال) بنظرة مستنكرة ، وكأنما لم يطلب منه إحضار أية سيارات ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى الأمر ، فقال فى عصبية :

ـ فليكن .. استدع ذلك الخبير ، وهيا بنا ..

قاطعه صوت الخبير ، وهو يشير إليه ، هاتفا :

ـ سيّد (بيجال) .. هناك آثار أخرى .

انعقد حاجبا (بيجال) فى شدة ، واتجه نحو الخبير فى خطوات سريعة ، وتطلّع إلى تلك الآثار الجديدة ، والخبير يقول :

ـ إنها ليست إحدى آثارنا .

وازداد انعقاد حاجبى (بيجال) فى شدة ..

فتلك الآثار كانت تحمل مفاجأة أخرى ..

وتعنى أن اللعبة ستمتد إلى جولة جديدة ، أكثر أهمية ..

وأكثر خطورة ..

* * *

لثوان ، انعقد لسان (صالح) ، وعجز عن التفوه بحرف واحد ، وهو يحدق فى وجه الواقف أمامه ، فاندفع شقيقه (أحمد) نحو الحجرة ، وهو يستل خنجره ، هاتفا فى قلق وانزعاج :

ـ ماذا حدث ؟ .. هل ..

ثم ابتلع باقى عبارته ، وهو يحدق بدوره فى ذلك الشاب ، ذى الثياب البدوية ، الذى وقف فى منتصف الحجرة ، بقامة مشدودة فى اعتداد ، على الرغم من علامات الإرهاق والإعياء الواضحة على وجهه ، وفى نبرات صوته ، وهو يقول :

ـ معذرة .. لم أقصد مباغتتكما .

انحلت عقدة لسان (صالح) مع عبارة الشاب ، فاندفع نحوه فى حرارة ، هاتفا :

ـ رباه ! .. كيف وصلت إلى هنا ؟

أجابه (فاى) فى تماسك :

ـ سيرا على الأقدام .

اتسعت عينا (أحمد) فى دهشة ، وهو يغمغم :

ـ أهذا هو ؟!

أما (صالح) فأسرع يدعو الشاب للجلوس على طرف فراشه ، وهو يسأله فى حماس :

ـ لست أقصد هذا ، وإنما أردت سؤالك عن كيفية توصلك إلى منزلى ، وتجاوزك لنقاط التفتيش الإسرائيلية ، وقواعد حظر التجوال ؟!

ترك الشاب جسده المجهد يسقط على حافة الفراش ، وهو يجيب فى هدوء رصين ، لا يتناسب قط مع الإجهاد المطل فى كل خلجة من خلجاته :

ـ كانت هناك خطة بديلة ، فى حالة عدم نجاحى فى العثور عليك ، أو سقوطى بعيدا عن نقطة اللقاء ، ولقد تم تدريبى على نموذج (للقصيمة) ، وحددوا لى موقع منزلك بالضبط .

سأله (أحمد) فى انبهار :

ـ هل دربوك على هذا أيضا ؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابا ، وقاوم سقوط جفنيه فى إصرار ، وهو يجيب فى خفوت :

ـ إنهم لا يهملون أية تفاصيل أو احتمالات .

تمتم (أحمد) :

ـ يا إلهى .. عمار يا (مصر) .

أما (صالح) ، فسأل الشاب فى لهفة .

ـ وماذا عن الإسرائيليين وحظر التجوال ؟!

ترك الشاب جفناه يسقطان فوق عينيه ، وهو يغمغم فى إرهاق شديد :

ـ هذه ليست مشكلة .

مال (أحمد) بوجهه إلى الأمام ، وهو يحدّق فيه بدهشة وانبهار ، وفى حين ربّت (صالح) على كتف الشاب فى حرارة ، وهو يقول :

ـ لا بأس يا بطل .. لا بأس .. لقد أبليت بلاءً حسنًا بحق ، ولكنك الآن تحتاج إلى النوم .. جسدك فقد طاقته . ويحتاج إلى إعادة شحن بطارياته .. هيا .. ارقد فى فراشى ، وانعم ببعض النوم .. هيا .

حاول الشاب أن يقاوم رغبته فى النوم ، وهو يتمتم :

ـ وماذا عن الذهاب إلى (بئر سبع) ؟

دفعه (صالح) فى رفق : ليستلقى على الفراش ، وهو يجيب فى مزيج مدهش من الإعجاب والتعاطف :

ـ سنذهب إليها يا بطل .. اطمئن .. سنذهب إليها .. احظ ببعض النوم أولًا ، وسننطلق إليها مع الساعات الأولى للصباح .

لم يكن الشاب بحاجةٍ إلى إلحاح طويل ، مع إرهاقه وتهالكه الشديدين ، فترك جسده يسترخى فوق الفراش ، وهو يهمس :

ـ لا بأس .. لا بأس .

ثم هوى فى بحر النوم بلا مقدمات ..

ولثوان ، تطلّع إليه (صالح) فى صمت ، ثم التفت إلى شقيقه ، ووضع سبّابته على شفتيه يدعوه إلى السكوت ، ودفعه أمامه إلى خارج الحجرة ، ثم أغلق بابها خلفه فى رفق ، وهمس :

ـ يبدو أنك ستضطر لاستضافتى فى حجرتك الليلة .

سأله شقيقه ميهورا :

ـ قل لى يا (صالح) .. أكل رجال المخابرات المصرية مثل هذا الشاب ؟

ربّت (صالح) على كتفه ، قائلا بابتسامة كبيرة :

ـ كلهم أبطال .

أومأ (أحمد) برأسه ، وكأنما اكتفى بهذا الجواب ، واتجه مع شقيقه إلى حجرته على أطرف أصابعهما ، وكأنهما يخشيان إيقاظ الشاب ، و ...

وفجأة ارتفعت طرقات قوية على باب الشقة ، فتجمد كل منهما فى مكانه ، وغمغم (صالح) فى توتر شديد :

ـ ترى من يمكن أن يأتى فى هذه الساعة ؟

انتزع (أحمد) نفسه من دهشته وتوتره ، واندفع نحو الباب ، قائلا :

ـ من يدرى ؟

تحرك (صالح) فى سرعة ، محاولا بلوغ حجرة الشاب لتحذيره ، قبل أن يفتح (أحمد) الباب ، ولكن الباب انفتح بغتة فى عنف ، واندفع عبره أربعة من الجنود الإسرائيليين إلى الحجرة ، وصوّبوا مدافعهم الآلية إلى (صالح) و (أحمد) ، فى نفس الوقت ، الذى دلف فيه رجل صارم الملامح ، يرتدى حلة مدنية ، إلى المنزل ، وهو يرمق البدويين بنظرة نارية ..

رجل يُدعى (بيجال) ..

(بيجال يائيل) .

* * *

٧ ـ تحت الحصار ..

« لقد فعلها .. »

هتف (نسيم) بالعبارة فى حماس مدهش ، وهو يقتحم حجرة الاجتماعات الصغيرة ، فى مبنى المخابرات العامة ، فى الثالثة والنصف صباحا ، فالتفت إليه الجميع فى دهشة متسائلة ، جعلته يلوّح ببرقية فى يده ، مستطردا :

ـ رجلنا نجا منهم .

ارتفعت حواجبهم فى دهشة ، وهتف أحدهم :

ـ (فاى) ؟!

اندفع (نسيم) نحو مقعده ، وهو يشير إلى البرقية ، مجيبا :

ـ نعم .. (فاى) .. رجلنا (فاى) .. لقد لقّن الإسرائيليين درسا قاسيا ، وجعلهم يعرفون من هم المصريون ، وما الذى يمكن أن يفعلوه .

أشار إليه قائد المجموعة فى اهتمام ، قائلا :

ـ اهدأ يا (نسيم) ، وأخبرنا ماذا لديك .

لم يستطع (نسيم) مقاومة حماسه وانفعاله ، وهو يجلس على مقعده ، قائلا :

ـ الشاب حطّم أربع طائرات هليوكوبتر (بى. أو ـ ١٠٥) ، وأربع سيارات (جيب) عسكرية ، وأسقط الجنود الإسرائيليين كالذباب ، فى مواجهته الأولى المنفردة معهم ، ثم ، وبعد كل هذا ،

نجح فى الفرار منهم ، وأصابهم بغضب جنونى ، يدفعهم إلى نبش الأرض نبشاً للبحث عنه .

غمغم أحدهم :

ـ رباه ! .. أفعل كل هذا وحده ؟

ولكن قائد المجموعة اعتدل فى مجلسه ، وقال متوترًا :

ـ إذن فقد تعقدت الأمور هناك .

صمت الجميع إثر عبارته ، وتركزت أبصارهم كلها على (نسيم) ، الذى ذهب حماسه الزائد دفعة واحدة ، واستعادت ملامحه جمودها وصرامتها ، وهو يشارك الجميع صمتهم لما يزيد قليلا عن نصف الدقيقة ، ثم يقول فى حزم :

ـ تعقدت للغاية .

نطقها ، ثم استعاد حماسه بغتة ، مضيفًا :

ـ ولكن هذا لا يمنع من أن رجلنا مازال متفوقًا .

أجابه القائد فى صرامة :

ـ ربما كان كذلك من الناحية القتالية ، وإن كنت أعتبر هذا مجرد تفوق وقتى ، أما من الناحية الأمنية ، فذلك القتال ، الذى دار فى قلب (سيناء) ، أيًا كانت نتائجه ، يعنى أن جزءًا كبيرًا من خطتنا قد فشل .

أجاب (نسيم) فى سرعة :

ـ ليس بعد .. الإسرائيليون يطاردون الشاب ويبحثون عنه ، وسيقلبون الأرض من أجله ، ولكنهم لن يستطيعوا أبدًا معرفة الهدف من هبوطه فى (سيناء) ، ولا الجهة التى ينتمى إليها .

ثم تراجع فى مقعده ، وقال مشيرًا بأصابعه :

ـ دعونى أذكركم بكل الاحتياطات التى اتخذت فى هذا الشأن ، فالمظلة التى هبط بها سوفيتية الصنع ، وهى من طراز شائع ، يستخدمه السوفيت ، والبولنديون ، والمجريون ، والسوريون ، والعراقيون ، ونحن ، وبعض رجال المرتزقة ، أما الزى الذى يرتديه فهو زى بدوى ، يمكن أن يرتديه أى شخص يسعى للتسلل إلى مثل هذا المكان ، ثم إنه لا يحمل أية أسلحة ، ولديه أوراق رسمية سليمة ، صادرة من جهات إسرائيلية معترف بها هناك ، وتحمل كل الأختام المطلوبة .

سأله أحدهم :

ـ وماذا عن ملامحه ولهجته ؟.. ألا تكفى لكشف هويته ؟

هزّ (نسيم) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ كلاّ .. الشاب تدرّب لفترة طويلة فى القسم العبرى (٣ . ج . أ) ، وهذا يؤهله لتقمُّص شخصية إسرائيلية فى أية لحظة ، حتى لو تم إيقاظه على نحو مباغت ، أو تعرّض للقسوة والتعذيب .

ران عليهم الصمت لحظات ، وهم يتبادلون نظرات قلقة ، ثم قال القائد :

ـ فليكن .. لم يعد التراجع ممكنًا ، وليس أمامنا سوى حل من اثنين ، فإما أن نصدر أمرًا بإلغاء العملية كلها ، أو نمضى فيها قُدمًا ، أيًا كانت النتائج .. ما رأيكم أيها السادة ؟!

جرى تصويت سريع فى القاعة ، بعد مناقشة قصيرة ، وتنفّس

(نسيم) الصعداء ، عندما انتهى الأمر إلى الموافقة على استمرار العملية ، والتفت إليه القائد ، قائلا :

ـ حسن يا (نسيم) .. ما الموقف الآن بالضبط ؟!

اعتدل (نسيم) فى مجلسه ، واستعاد الكثير من حماسه ، وهو يجيب :

ـ ما دام الشاب قد نجح فى الإفلات من الإسرائيليين ، فسينتقل مباشرة إلى الخطة البديلة ، وسيتجه إلى منزل (صالح) فى (القصيمة) .. لقد درس المنطقة جيدا ، ولن يجد صعوبة فى هذا .

ثم التقط نفسا عميقا ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن الأخبار ليست كلها حسنة بالتأكيد .

بدا الاهتمام والتساؤل فى عيونهم ، فتابع :

ـ فالرجل الذى يتولى العملية ، فى الجانب الإسرائيلى ، ليس بالخصم الهين أو السهل .. إنه واحد من أقوى ضباط (الموساد) ، وأكثرهم عنفا وذكاء وشراسة .

وأدار بصره فى العيون ، قبل أن يستطرد :

ـ إنه (يائيل) ..(بيجال يائيل) .

بدا أثر الاسم واضحا فى وجوههم ، وهم يتبادلون نظرات أكثر قلقا وتوترا ، وتنهد القائد فى عمق ، قائلا :

ـ هذا يجعل موقف الشاب أكثر دقة ، فـ (بيجال) عنيد للغاية ، ولا يقبل الهزائم بسهولة ، وسيواصل مطاردته للشاب بلا هوادة ، حتى يظفر به ، حتى ولو اضطر إلى نسف نصف إسرائيل للوصول إليه .

أومأ (نسيم) برأسه موافقا ، وقال :

ـ هذا صحيح ، ولذلك فقد أرسلت رسالة لاسلكية شفرية إلى أحد عملائنا المخلصين ، فى تلك المنطقة ، وطلبت منه إفادتنا بتحركات (بيجال) خطوة فخطوة ، حتى يمكننا التحرك فى الوقت المناسب ، إذا ما تعقدت الأمور أكثر وأكثر ، و ...

اضطر لبتر عبارته ، عندما ارتفع رنين هاتف الطوارئ الخاص ، واستدارت العيون كلها إلى الهاتف ، الذى التقط القائد سماعته ، ووضعها على أذنه ، قائلا :

ـ ماذا هناك ؟

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدثه ، قبل أن يغمغم بكلمة غير مفهومة ، وينهى المحادثة ، ثم يرفع عينيه إلى (نسيم) ، قائلا :

ـ عميلنا أرسل آخر الأخبار .

أطلت اللهفة من عيون الجميع ، وهو يتابع :

ـ الشاب بالفعل فى منزل (صالح) .

تنهد (نسيم) فى ارتياح ، وهم بقول شىء ما ، لولا أن استدرك القائد فى سرعة وحزم :

ـ وكذلك (بيجال) ورجاله .

واتسعت عينا (نسيم) فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

لقد تعقدت الأمور أكثر وأكثر بالفعل ..

وحدثت المواجهة التى يخشاها ..

المواجهة بين (فاى) ، ورجل (الموساد) المحنك (بيجال) .. ويالها من مواجهة !..

* * *

خرجت الكلمات صارمة قاسية ، من بين شفتى (بيجال) ، وهو ينقل بصره بين وجهى (صالح) و(أحمد) ، قائلا :

ـ أين هو ؟!

امتقع وجه (أحمد) فى شدة ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، لم يغب عن عينى (بيجال) الخبيرتين ، فى حين قال (صالح) فى سرعة :

ـ أين من يا رجل ؟

التفت إليه (بيجال) فى حركة حادة ، وهو يقول :

ـ المصرى .

تمالك (صالح) أعصابه جيدًا ، وهو يجيب :

ـ أى مصرى ؟!.. كلنا هنا مصريون يا رجل .

مال (بيجال) برأسه نحوه ، قائلاً فى شراسة :

ـ لا تتذاكى أيها الحقير .. أنت تفهم سؤالى جيدًا ، ولا جدوى من الإنكار ، أو التظاهر بالبراءة والسذاجة .. لقد عثر الخبير على آثار إطارات سيارتك على الرمال ، وتتبعناها إلى هنا ، والسيارة مازالت فى مكانها أمام المنزل .

قال (صالح) فى هدوء :

ـ وماذا فى هذا ؟.. إننى لم أذع .. إننى لم أخرج بسيارتى إلى الصحراء .. لقد أردت طرد قط ، و ...

باغته (بيجال) بصفعة قوية على وجهه ، قبل أن يكمل عبارته ، وصرخ فيه غاضبا :

ـ قلت لك : لا تتذاكى .

احتقن وجه (صالح) فى شدة ، وأطل غضب الدنيا كله من عينيه ، فى حين هتف (أحمد) فى ثورة ، ويده تقفز نحو خنجره المعلق فى حزامه :

ـ أيها الـ ...

أمسك (صالح) يده فى سرعة ، هاتفا :

ـ إياك ..

ضاقت عينا (بيجال) ، وهو ينقل بصره بينهما ، وقال فى صرامة :

ـ أحسنت بمنعه أيها البدوى ، فلو لمس مقبض خنجره هذا ، لمزقته رصاصات رجالى إربًا ، قبل أن يستله من حزامه .

بذل (صالح) قصارى جهده لكظم غيظه ، والسيطرة على أعصابه ، وإن لم يستطع منع عينيه من رمى (بيجال) بنظرة نارية ، وهو يتمتم :

ـ أعلم أن أمثالك لا يتورعون عن فعل هذا .

زمجر (بيجال) فى شراسة واضحة ، وهو يقول :

ـ عظيم .. إننى أميل دائما إلى التعامل مع من يحسنون فهم الأمور .. هذا يختصر الكثير من الوقت ، ويدخر الجهد والملل .

ثم عاد يميل نحوه ، وهو يسأل فى صرامة مخيفة :

ـ والآن ، دعنى أكرر السؤال للمرة الأخيرة .. أين هو ؟!

لم يكد يتمّ عبارته حتى تناهت إلى مسامعه حركة خافتة ، جعلته يدير عينيه فى سرعة إلى الحجرة ، التى يرقد داخلها الشاب ، ثم استلّ مسدسه ، وهو يشير إليها ، هاتفا فى انفعال :

ـ اهجموا يا رجال .

ولم يضع الإسرائيليون لحظة واحدة ..

فقبل حتى أن يكتمل هتافه ، كانوا يندفعون نحو الحجرة ، ويقتحمونها ، و ...

وردّد الليل دوى الرصاصات فى سماء (القصيمة) ..

* * *

مما لا شك فيه أن الشاب كان مجهدًا إلى أقصى حد ، عندما بلغ منزل (صالح) ..

لقد تلقى تدريبا مكثفا ، خلال الساعات القليلة ، ما بين إبلاغه بالمهمة ، وهبوطه الفعلى بالمظلة فى قلب (سيناء) ..

ثم خاض تلك المعركة العنيفة مع الإسرائيليين ..

وقطع أكثر من عشرين كليو مترا سيرًا على الرمال ..

وما أدراك كم يجهد السير على الرمال ..

ولكل هذا ، فقد استغرق فى نوم عميق ، فى نفس اللحظة التى استلقى فيها على فراش (صالح) ..

ولم تمض دقائق على هذا ، حتى اقتحم (بيجال) ورجاله المكان ..

وفى نفس اللحظة ، التى فعلوا فيها هذا ، استيقظ عقله دفعة واحدة ..

استيقظ بكامل طاقته وحيويته ، مثلما يحدث مع الذئاب ، فى ساعات الخطر ..

وفى الثانية التى بدأ فيها رجل (الموساد) حديثه مع (صالح) و (أحمد) ، كان الشاب يثب خارج فراشه ، ويندفع نحو الباب على أطراف أصابعه ..

وسمع دوى الصفعة ، التى هوت على وجه (صالح) ، فغلت الدماء فى عروقه ، وكاد يقفز خارج الحجرة ، وينقضّ على (بيجال) ، ويحطّم أنفه بلكمة مباشرة ..

لولا أن دوت فى رأسه كلمات مدربه الأول (رفعت)(*) ..

« لا تسمح لانفعالك بإخماد صوت العقل قط .. » .

« فى كل الظروف والأحوال ، يمكنك أن تقاتل بكل قوتك ، دفاعا عن كرامتك وكبريائك .. إلا لو تعارض هذا مع مصلحة (مصر) .. »

« عندما تبلغ الأمور الحد الأقصى من التعقيد والتشابك ، فلا تتردّد لحظة فى الانسحاب ، مادام تمهيدًا لجولة جديدة من الصراع .. » ..

استعاد كل هذه العبارات فى جزء من الثانية ، وتمتم فى صرامة :

ـ ستدفع ثمن هذه الصفعة يوما أيها الإسرائيلى بإذن الله .. ستدفع ثمنها غاليا .

(*) راجع قصة (البعث) .. فى عدد (كوكتيل ٢٠٠٠) رقم (٢٠)

وبالضبط كما تمّ تدريبه ، راح عقله يدرس موقفه الحالى ، ويبحث عن أفضل الوسائل لمواجهة الخطر ، والسعى لإتمام المهمة التى هبط من أجلها ..

ويعد ثوان معدودة ، كان يفتح نافذة الحجرة ، ويثب متعلقا بحافتها الخارجية العليا ، ثم يدفع جسده بكل قوته إلى السطح ..

والتقطت أذن (بيجال) صوت قفزته إلى السطح ، فهتف يطالب رجاله بالهجوم ، وأسرعوا بدورهم يقتحمون الحجرة ..

وفى نفس اللحظة ، التى فعلوا فيها هذا ، كان الشاب يعدو فوق السطح ، نحو حافته المطلة على مدخل المنزل ثم يثب منه إلى واحدة من سيارات (الجيب) العسكرية الثلاث ، التى تقف هناك ..

وكانت مفاجأة مدهشة لسائق السيارة ، الذى صرخ ، وهو يدير فوهة مدفعه الآلى نحو الشاب :

ـ اللعنة !.. من أين أتـ ..

لم يمهله الشاب ليتم عبارته ، وإنما انقض عليه كالصاعقة ، وهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، ثم انتزع مدفعه الآلى من يده ، قبل أن يركله بقدمه فى صدره ، ويلقى به خارج السيارة ، ثم يلتفت لمواجهة الحارس الإسرائيلى ، الذى استدار نحوه بمدفعه ..

وردّد الليل دوى الرصاصات فى سماء (القصيمة) ..

رصاصات انطلقت من مدفع الحارس الإسرائيلى ..

ومن مدفع الشاب ..

وهنا تجلت براعة التدريبات المصرية ..

وموهبة الشاب القتالية الفذة ..

لقد تحرك فى سرعة مدهشة . فمال بجسده . وانثنى فى رشاقة . ووثب جانبا . فى نفس اللحظة التى أطلق فيها الحارس الإسرائيلى رصاصاته . فطاشت كلها فى الهواء . ولم تصب سوى زجاج (الجيب) وأحد مقاعده . فى حين أطلق الشاب رصاصاته نحو هدفه فى إحكام مدهش . فاخترقت كلها جسد الحارس . واقتلعته من الأرض . لتقى به ثلاثة أمتار إلى الخلف . فارتطم بباب منزل (صالح) . وحطمه فى عنف . ليسقط معه داخل المكان . وينابيع الدم تتفجر من صدره وعنقه ورأسه ..

واتسعت عينا (بيجال) فى غضب هائل . وهو يحدق فى جثة الحارس . هاتفا :

ـ اللعنة !.. إنه هنا .

فى نفس اللحظة . التى نطق فيها عبارته . كان الشاب يقفز إلى مقعد قيادة (الجيب) . ويدير محركها . ثم ينطلق بها مبتعدا ، فاستل (بيجال) مسدسه . وصرخ وهو يعدو نحو الخارج :

ـ ألقوا القبض على هذين البدويين الخائنين . وليلحق الباقون به .. أسرعوا .

وقفز خارج المنزل . وراح يطلق رصاصات مسدسه خلف (الجيب) . التى انطلق بها الشاب بأقصى سرعة . وهدير رصاصات المدافع الإسرائيلية يدوى من خلفه . ويعزف مع صوت ارتطام الرصاصات بجسم السيارة سيمفونية لا يستوعبها إلا من ألفوا مثل هذه الحياة ..

سيمفونية الخطر ..(*) .

وبلا تردد . وثب (بيجال) إلى واحدة من سيارتى (الجيب) الآخرين . وانطلق بها خلف الشاب . فى حين انطلق خلفه أربعة من الجنود . فى السيارة المتبقية . وبقى جنديان لإلقاء القبض على (صالح) وشقيقه ..

ولم يكن من الطبيعى أو المنطقى . أن يستسلم البدويان بهذه البساطة.

لقد انكشف أمرهما . ولم يعد هناك مهرب من الاعتقال ..

ولم يعد لديهما أيضا ما يخسراته ..

لذا فقد استل (صالح) خنجره من غمده . ووثب نحو أحد الجنديين . هاتفا :

ـ الموت أهون من الوقوع فى أيديكم أيها الأوغاد .

بوغت الجندى بالهجوم . وقبل أن يدير فوهة مدفعه نحوه . كان (صالح) يغمد خنجره حتى مقبضه فى صدره ..

أما الجندى الآخر . فقد وثب متراجعا فى سرعة ومرونة . وصرخ :

ـ قتلتما زميلى أيها البدويان .. إنكما تستحقان القتل .

وفى نفس اللحظة التى استل فيها (أحمد) خنجره . كان الإسرائيلى يصوب فوهة مدفعه إليه وإلى شقيقه . و ..

ودوت الرصاصات مرة أخرى . فى سماء (القصيمة) ..

* * *

(*) السيمفونية : تأليف آلى فى الموسيقى الأوروبية . الأصل فيه من افتتاحيات الأوبرات الغنائية الإيطالية . فى القرن السابع عشر . ثم تطور فأصبح تأليفا مستقلا . تشترك فيه مجموعة الآلات (الأوركسترا) . وقد يراد به تصوير حالة ما . أو سلسلة معان لموضوع محدود .

كان من الواضح أن الشاب بارع للغاية فى قيادة سيارته ..
وأن (بيجال) لا يقل عنه براعة ..
أو إصرارا ..
ومن بعيد ، بدأ الشفق يتلوّن بألوان الفجر الأولى ، معلنا الاستعداد لمولد شمس يوم جديد ، وثلاث سحابات من الرمال تتكوّن فى قلب الصحراء ، فى واحدة من أشرس المطاردات التى شهدتها (سيناء).
وفى أعماقه ، شعر (بيجال) بغضب هادر ..
لقد نجحت وسائله ، وعثر على الجاسوس ..
ولكنه لم يوقع به فى قبضته ..
ومن الواضح أنه ليس جاسوسا عاديًا ..
إنه رجل من طراز خاص ..
خاص للغاية ..
إنه يبدو له أشبه بالزئبق ، كلما أطبقت عليه الأصابع ، أفلت منها فى سرعة وليونة ..
ولكنه لن يسمح له هذه المرة ..
لن يسمح له بالإفلات منه أبدًا ..
ومهما كان الثمن ..
وفى عنف ، انتزع بوق جهاز اللاسلكى فى السيارة ، وأدار مؤشّر الجهاز إلى موجة محدودة ، وهو يقول :
ـ (زلفى) .. أين أنت أيها اللعين ؟
أتاه صوت (زلفى) ، يقول فى ارتباك :
ـ أنا هنا يا أدون (بيجال) .. إلى جوار الهليوكوبتر كما أمرتنى .
صاح به (بيجال) :
ـ استقل تلك الهليوكوبتر اللعينة ، وأسرع بها إلى هنا يا رجل .. لقد عثرنا على الجاسوس .

هتف (زلفى) :
ـ حقًا ؟!.. هل ألقيتم القبض عليه ؟
صاح (بيجال) فى ثورة :
ـ ليس بعد أيها الغبى .. ليس بعد .. أسرع بالهليوكوبتر إلى هنا .. إننا نطارده ، ولا أريد أن أمنحه فرصة واحدة للفرار .
أجابه (زلفى) فى انفعال :
ـ أرشدنى إلى موقعك ، وسنأتى إليك على الفور .
قال (بيجال) ، وهو ينحرف بسيارته فى عنف خلف الشاب :
ـ اتجه إلى الشرق ، وسترى المطاردة فى وضوح يا رجل .. أسرع .
وأنهى الاتصال ، وانعقد حاجباه فى حدة ، وهو يغمغم :
ـ اللعنة .. ذلك الجاسوس ماهر بحق .. إنه يتجه إلى ..
بتر عبارته بغتة ، وازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :
ـ يا للشيطان !.. نعم .. إنه يتجه نحو فرقة (عامير) دون أن يدرى .. إنها فرصة مثالية .
وعاد يلتقط بوق اللاسلكى ، ويجرى اتصالاً آخر ..
وعندما انتهى من اتصاله ، كانت دبابتان فى فرقه الجنرال (عامير) تنفصلان عن رفيقاتهما ، وتتجهان بطاقميهما نحو الغرب ، لاعتراض طريق سيارة الشاب وكان هذا يعنى أن المطاردة قد تحوّلت إلى حملة صيد فى قلب (سيناء) ..
حملة احتشدت لها كل القوى ، من أجل فريسة واحدة ..
فريسة تحمل اسمًا فريدًا فى عالم الأحياء ..
اسم (فاى) .

* * *

[البقية فى الكتاب القادم بإذن الله]

اقرأ فى الكتاب القادم

عملية تل أبيب

* مامصير (فاى) ، فى تلك المطاردة ، التى حشد لها رجل (الموساد) كل القوى؟!
* هل ينجح الشاب فى مواصلة مهمته ، وبلوغ (تل أبيب) ؟!
* ترى ما الخطر الرهيب ، الذى ينتظره فى (بئر سبع) ؟!
* اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع البطل الجديد .. (فاى) .

عملية (تل أبيب) الجزء الثالث

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

المرأة مشكلة .... صنعها الرجل

(دراسة)

٣- أنوثتى أو حريتى

٢ ـ أنوثتى .. أو حريتى ..

أوّل مشكلة تواجه الأنثى ، فى عالمنا العربى هى أنوثتها نفسها .

تلك الصفة التشريحية ، التى تنتزع منها عشرات الحقوق الآدمية ، وتمنحها للذكر فى إفراط ليس له ما يبرّره .

صحيح أنه هناك اختلافات جوهرية بين الذكر والأنثى ، فى الحقوق والواجبات ، إلا أنهما يتساويان حتمًا فى الحقوق والمشاعر الآدمية .

فالذكر يتألّم ..

وكذلك الأنثى ..

وهو يشعر ، ويفكّر ، ويفرح ، ويحزن ، وينسجم ، ويضيق ..

والأنثى أيضًا تمتلك نفس المشاعر ..

ثم إنه يحب ..

وهنا يتوقّف فكرنا لسبب مجهول .

إننا نعترف تمامًا بحق الولد فى أن يحب ، وفى أن تكون له فتاة أحلام ، يتحدّث عنها ، ويهيم بها ، ويضع صورتها فى إطار ذهبى أنيق ، إلى جوار فراشه ..

بل وربما تشعر أمه بالفخر والسعادة ، وهى تروى هذا الأمر ، أو تهمس به فى آذان صديقاتها وقريباتها ، وتعتبر أن هذا دليل على رجولته ، ونضجه ، ونمو مشاعره وأحاسيسه ..

لكنّ إياك أن تشير ابنتها مجرّد إشارة إلى الحب ..

الويل كل الويل لها ، لو تتحدّث عنه ، أو وصفت ملامح فتى أحلامها ، حتى ولو لم يكن لهذه الملامح وجود فى عالم الواقع ..

إنها تتلقّى عندئذ سيلاً من النصائح والتحذيرات والتوبيخ والتأنيب ، وكأنما ارتكبت ذنبًا لا يغتفر ، لمجرّد أنها تمتلك نفس المشاعر ، التى يمتلكها شقيقها ..

ولأن الأم والأب يخشيان أن تتفتح عينا ابنتهما للمشاعر ، أو تتفتّح زهرة قلبها للحب ، فهما يحيطانها بسياج من الأسوار الشائكة ، ويسعيان فى استماتة لانتزاع كل معالم الأنوثة من أعماقها .

لا تقفى طويلاً أمام المرآة ..

لا طلاء شفاه ..

لا طلاء أظفار ..

لا تهتمى بأنوثتك ، وإلا اعتبرنا هذا دليلاً على وجود اهتمامات أخرى فى حياتك ، من خلف الستار .

ولأن مشاعر الأنثى رقيقة وحسّاسة بالفطرة ..

ولأن المجتمع يقهر ويحارب هذه المشاعر فى أعماقها ، فهى تستمع إلى كل النصائح فى صمت ، أو تبدى اعتراضات واهية ، أو ...

أو تقاوم ..

والمقاومة هنا تتخذ عدة صور ..

فإما أن تثور على هذه النصائح ، وترفضها بصورة علنية واضحة ، فتكون بداية لحرب بلا هوادة ، بينها وبين والديها ،

اللذين يتصوران أن هذا الرفض دليل جديد على ارتباطها بشخص ما، أو على رغبتها فى هذا على أقل تقدير ، فيضاعفان من صرامتهما وشدتهما ، ويسعيان لقهر مشاعر الأنوثة فى أعماق ابنتهما أكثر وأكثر ، وكأن هذه هى الوسيلة الوحيدة للحفاظ عليها ، وإنقاذها من السقوط فى هوة الفساد والانحلال والضياع ..

أو تلجأ إلى أسلوب الخداع وتجاوز المشكلات ..

وهذه وسيلة أخرى من وسائل المقاومة ..

إنها تتظاهر بالخضوع لكل النصائح والأوامر ، وتتوقف عن استخدام أدوات الزينة أو التجميل ، أو تقلل من استخدامهما إلى أدنى حد ، حتى تغادر المنزل على الأقل ..

ويتحول الأمر إلى نوع من الحرب الباردة الخفية ..

وإلى مباراة فى الذكاء والمناورة والخداع ..

وربما يرتاح الوالدان لهذا المسلك ، ويتوقفان عن ملاحقة ابنتهما ومحاصرتها ..

وترتاح الابنة لتوقف القتال على كل الجبهات ..

ولكنها فى أعماقها تظل غاضبة من أنوثتها ..

ثائرة عليها ..

وتتهمها بأنها المسئولة عن كل ما تعانيه ..

وكم تتمنى عندئذ لو أنها لم تُخلق أنثى ..

وأنها كانت ولدا مثل شقيقها ..

والمشكلة الحقيقية ، التى نتحدث عنها فى هذا الفصل ، هى أن تتحول تلك الرغبة إلى وسيلة جديدة من وسائل المقاومة ..

أن تتقمص البنت شخصية الولد ..

أن تتخلى عن مظاهر الأنوثة ، التى كانت السبب فى كل ما تواجهه من مشكلات ..

وأول ما تنزعه عنها من هذه المظاهر ، هو الثياب نفسها ..

إنها ترفض ارتداء كل الثياب الرقيقة ، ذات الطابع الأنثوى ، وتستبدل بها ثوبا من طراز (رجالى) ..

سروال ، وقميص ، وحذاء ضخم ، يفتقر إلى اللمسات اللطيفة أو الشاعرية ..

ومن الثياب ، تنتقل البنت إلى أسلوب الحديث ، والتصرفات ، والمعاملات الاجتماعية ..

وتتحول البنت إلى صورة ممسوخة من الولد ..

صورة تفتقر إلى الرقة والنعومة والحنان ..

صورة فظة ، خشنة ، جافة ..

والعجيب أن هذا يريح الأبوين إلى حد كبير ، ويجعلهما يمنحان البنت قدرا إضافيا من الحرية ، وكأنما اطمأنا إلى أنها لم تعد تمتلك من مشاعر الأنوثة ما يستحق الخوف ..

بل ويتحدثان عن هذا فى مرح عجيب ..

تشير أنت مثلا إلى أن البنت قد ذهبت وحدها إلى مكان مقفر نوعا ، فيبتسم الأبوان ، ويقول أحدهما فى شىء من الزهو :

- لا تخش عليها .. إنها (راجل) ..

ولست أدرى حتى الآن ما الذى يسعدهما فى هذا ..

لقد تخلّت ابنتهما عن واقعهـا ، وكتمت الأنوثة فى أعماقها ، وخسرت أجمل مشاعرها ..

ولكن كل هذا لا يهم ..

المهم أنهما أصبحا يشعران بالارتياح ، وضاع منهما القلق ..

أو جزء كبير منه على الأقل ..

وهذا بالضبط ما تريده البنت ، وما سعت إليه ..

وجدت أن أنوثتها تعوق حريتها ، فعقدت معهمـا صفقة ، بدت لها عادلة ..

خذوا أنوثتى .. وأعطونى حريتى ..

تخلّت عن الأنوثة ، ثمنًا لمزيد من الحرية ..

المؤسف أنها ، حتى وبعد أن تحصل على الهامش الإضافى من الحرية ، لن تشعر بالارتياح ..

هذا لأنها تكتم نداءً طبيعيًا فى أعماقها ..

نداء الأنوثة ..

إنها تتقمّص دور الولد ، حتى يتركها أهلها وحالها ، ويتوقفون عن مطاردتها طوال الوقت ، ولكن هذا لا يعنى أن مشاعرها قد أصبحت مشاعر ولد ..

إنها بنت ..

بنت تشعر ، وتحب ..

بنت لها فتى أحلام ..

بنت تتمنى أن يأتى يوما من يعاملها كبنت ..

من يربّت بيد حانية على مشاعرها الدفينة ..

من يرفع قناع الذكورة الزائف عن وجهها ، ويرى أنوثتها الحقيقية ..

وهى من أجل هذا تتعذّب ..

تحترق من أجل الدور الذى أجبرها المجتمع على لعبه ، والذى يتعارض تمامـا مـع مـا خلقـه اللـه (سـبحانه وتعـالى) فـى أعماقها ..

ومع ما تفيض به مشاعرها الطبيعية ..

ويبلغ هـذا العذاب ذروتـه ، عندمـا تميل إلـى شـخص سوى ، يضيق بما تحيط به نفسها من مظاهر الرجولة ، كما ستضيق هى به حتمًا ، لو أحاط نفسه بمظاهر أنوثة !!..

لحظتها تتمنى لو ألقت كل شـىء خلفهـا ، وعـادت أنثى رقيقة بسيطة ، حتى تعلن لمن تحب أنها ليست رجلا ..

وأنها أنثى ..

وتحب ..

باختصار ، إنها تتعذّب فى كل الأحوال ..

ومهما اتخذت من سبل ووسائل ..

فقط ، لأنها أنثى .

فالإنسان ـ أى إنسان ـ لا يمكن أن يصبح سويًا طبيعيًا ، إلا لو عاش كمـا خلقـه اللـه (سـبحانه وتعـالى) ، دون أن يقـاوم طبيعته ، أو يتقمّص دورا يخالف دوره ..

ولكن ماذا تفعل الأنثى المسكينة ؟!
إنها ستحمل فى أعماقها دوما مشكلة ..
أو تتحول هى نفسها إلى مشكلة ..
مشكلة كبيرة .. صنعها الرجل .

* * *

وإلى اللقاء مع فصل جديد ، فى الكتاب القادم بإذن الله من سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠

١ ـ كيف ؟! ..

انسابت أشعة الشمس كشلال من ذهب ، على مدينة (نيويورك) الأمريكية ، فى لحظات الشروق الأولى ، وامتدت ظلال ناطحات السحب العملاقة لمئات الأمتار ، والشفق يتألق بأضواء مبهرة ، بدت وكأنها تنبع من أعماق المحيط ، الذى بدا كدائرة هائلة ، تشغل الأفق كله ..

وفى بطء ، راحت الشمس تصعد إلى السماء ، معلنة مولد يوم جديد ، وغمرت المدينة بنورها ودفئها ، فى تلك الفترة من الصيف ، دبّ النشاط فى الطرقات ، وراح الجميع يستعدون لبدء أعمالهم ، والقيام بواجباتهم المعتادة ..

وفوق سطح مركز التجارة العالمى ، أعلى بناء فى (نيويورك) فى الوقت الحالى (*) ، ضمّ (ماهر المصرى) جفنيه فى قوة ، ومطّ شفتيه فى استنكار ، عندما سقطت أشعة الشمس على وجهه ، وزمجر فى غضب ، مغمغمًا :

ـ من فتح النافذة ؟!

ألقى السؤال دون أن ينتظر جوابًا ، وتثاءب فى قوة ، ثم اعتدل وهو ينقلب ؛ ليرقد على جانبه الأيسر ، ويستكمل ذلك الحلم ، الذى ملأ اللحظات الأخيرة لنومه ..

(*) فى الماضى ، كان أعلى بناء فى (نيويورك) هو (الامباير ستايت) .

لم يكن الحلم جميلا أو ممتعًا ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، ترك نفسه يغوص فيه لدقيقة أخرى ، والخدر يسرى فى جسده ، ويدفعه إلى الاستغراق فى النوم أكثر وأكثر ..

وانتهى الحلم ، كما تنتهى كل الأحلام ، دون أن تنحسم الأمور فيه ، أو تهبط كلمة النهاية ، فتثاءب مرة أخرى ، وكرر فى غضب أكثر :

ـ من فتح النافذة ؟!

كانت أشعة الشمس تغمر وجهه كله فى تلك اللحظة ، فمال بوجهه ، ورفع كفه إليه ، ليحجب عنه الضوء ، ويده الأخرى تبحث عن الغطاء بلا جدوى ..

يا لها من بداية سخيفة ليوم جديد ..

يوم من تلك الأيام ، التى ينبغى عليه فيها أن يخرج لمواصلة البحث عن عمل ، كما يفعل منذ أكثر من عام كامل ، بعد تخرجه من كلية العلوم ..

وهو يكاد يعرف ما ستنتهى إليه الأمور ..

فشل ، وإحباط ، وشعور مؤلم بالمرارة والضياع ، وباليأس من تحقيق حلم حياته ..

أن يتزوج (ياسمين) ..

لقد ارتبط بها وارتبطت به ، منذ عامهما الأول فى الكلية ، وراح حبهما ينمو مع أحلامهما ، طوال سنوات الدراسة ، حتى تخرجا معًا وتصورا أن حصولهما على الشهادة هو نهاية مرحلة الانتظار ، والخطوة الأولى فى سبيل تحقيق حلم الزواج .

ولكن واقع الحياة صدم أحلامهما بمنتهى العنف والقسوة ..
بل حطمها بلا رحمة أو هوادة ..
لقد أدركا ، بعد شهر واحد من التخرج ، أن الشهادة ليست السبيل لتحقيق الحلم ..
المهم هو أن يعثرا على عمل ..
وعلى دخل محترم ..
ولم يكن ذلك أمرا هينا أو بسيطا ..
إنه مشكلة هائلة ..
مشكلة تحتاج إلى معجزة بكل المقاييس ..
لقد تخرجا فى قسم الجيولوجيا (*) ، ولا أحد يرغب فى تعيين خريجى ذلك القسم ..
لا شركات البترول ، أو المناجم ..
أو حتى المدارس الصغيرة ..
الكل يتصرف وكأن ذلك القسم استثنائى ، أو تكميلى ..
أو أنه مجرد إضافة طريفة لكليات العلوم فى الجامعات ..
ولكن خريجيه لا يحملون مسوغات تعيين كافية أو مناسبة ..
وفى البداية ، استنكر كلاهما هذا الأمر ، واستهجنه ، وراحا يناقشان مع كل من يرفضهما ، ويجادلانه ويحاورانه ..

(*) الجيولوجيا : علم الأرض ، ويشمل دراسة أصل الأرض ، وتاريخ تطورها وبنيانها ، والأحداث التى مرت بها ، وطبيعتها الكيميائية والفيزيقية ، وكذلك دراسة سكانها ، وتطور الحياة فيها ، منذ أول تسجيل لنشوئها ، وحتى العصر الحديث

وبعد ستة أشهر فحسب ، أصبحا يكتفيان بالصمت والأسف ..
ثم انهارت (ياسمين) ..
صدمها الرفض ذات يوم ، فبكت وتألمت ، وأعلنت يأسها ، وانسحابها من رحلة البحث عن عمل ، وقررت مساندة (ماهر) فى رحلته فحسب ..
ومنذ ذلك الحين وهو يتعذب أكثر ..
لقد ظل الموقف على ما هو عليه ..
مجرد أداء نمطى ، يتكرر كل يوم ..
يستيقظ ، ويتناول طعام الإفطار ، ثم يخرج للبحث عن عمل ، حتى يضنيه التعب ، فيعود إلى المنزل محبطا يائسا حزينا ، ويجرى اتصالا هاتفيًا قصيرا مع (ياسمين) ، يبدأ بسؤال ملهوف منها ، وينتهى بعبارة مواساة حزينة ..
نمط صار يتكرر كثيرا ، حتى أصابه اليأس والإعياء ، ولم يعد يجد فائدة فى كل ما يفعله أو يحاوله ..
انتزعه هدير مروحة هليوكوبتر من أفكاره ، فرفع حاجبيه ، دون أن يفتح عينيه ، وتساءل عما تفعله هليوكوبتر ، فى مثل هذا المكان ، وبحثت يده مرة أخرى عن الغطاء دون جدوى ، فضم ركبتيه إلى صدره وعقد ساعديه أمام صدره ، وحاول أن يتجاهل هدير الهليوكوبتر ليواصل النوم ، و ..
« أنت هناك .. ماذا تفعل عندك ؟! .. »
اخترق النداء أذنيه فى عنف ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وتساءل : من هذا الذى يستخدم مكبرا صوتيًا ، ويتحدث بالإنجليزية على هذا النحو ؟!

« أنت هناك .. أفصح عن هويتك ، وإلا ... »

كان النداء الثانى أكثر صرامة وقربا ، وهدير الهليوكوبتر أصبح قويًا وعنيفا ، وكأنها تحلق فوقه مباشرة . ففتح عينيه فى بطء ، وهو يدور ليرقد على ظهره ، ويهتف محتجًا :

ـ ما هذا الإزعاج ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى انتفض جسده أعنف انتفاضة فى حياته كلها ، وكأنما اصابته صاعقة قوية ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، حتى كادتا تقفزان من محجريهما ، ومرت فى عروقه قشعريرة باردة كالثلج ، كاد يتجمد لها جسده كله ، وهو يصرخ بصوت حمل ذعر وذهول الكون كله :

ـ رباه ! .. ما هذا ؟!

صرخ بالكلمات ، وهو يحدق فى هليوكوبتر تحمل شعار شرطة (نيويورك) ، وتحلق فوقه مباشرة ، وبداخلها شرطى يحمل مكبرا صوتيًا ، ويقول فى صرامة :

ـ إياك أن تتحرك .. ابق فى مكانك ، حتى يصل رجال الأمن ، وإلا أطلقنا عليك النار ..

لم يكن (ماهر) بحاجة إلى هذا النداء فعليًا . فقد شمله الذهول حتى تجمد كيانه كله ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، ويحدق فى المدينة الممتدة أمامه حتى المحيط ، من فوق ناطحة السحب الهائلة ..

ومن باب بعيد ، اندفع نحوه رجلان يرتديان زى رجال الأمن الداخلى للبناية ، وصوبا إليه مسدسيهما ، وأحدهما يهتف :

ـ ارفع يديك فوق رأسك .

أطاعهما (ماهر) فى آلية ، وهو يصرخ فى ذعر وارتياع كبيرين :

ـ أين أنا ؟! .. كيف أتيتم بى إلى هنا ؟! .. كيف ؟!

لم يكن بحاجة فعلية إلى الجزء الأول من السؤال ..

إنه يعرف جيدًا أين هو ..

لا أحد يمكنه أن يخطئ ناطحات السحب ، وتمثال الحرية الذى يبدو من بعيد (*) ..

إنه فى (نيويورك) حتمًا ..

ولكن السؤال الثانى بالغ الأهمية بالنسبة له ..

هذا لأنه ، وعندما أوى إلى فراشه فى الليلة السابقة ، لم يكن يرقد على سطح مبنى مركز التجارة العالمى ..

بل ولم يكن يرقد على سطح أى مبنى فى (نيويورك) ، أو حتى فى (أمريكا) كلها ..

لقد كان يرقد فى منزله هناك ..

فى قلب (القاهرة) !!

* * *

(*) تمثال الحرية : تمثال ضخم ، مقام فى جزيرة عند مدخل ميناء (نيويورك)، أعده الفنان الفرنسى (بارتولدى) ، تخليدًا لذكرى الثورتين ، الأمريكية والفرنسية ، يبلغ ارتفاعه نحو ٤٦ مترًا ، وصنع كله من النحاس ، على هيئة امرأة ، تحمل بيدها مشعلاً ، ارتفاع قاعدته ٤٥ مترًا ، أهدته الرابطة الفرنسية الأمريكية للولايات المتحدة عام ١٨٨٤ م ، وأصبح رمزًا قوميًا عام ١٩٢٤ م .

« إنه حلم .. »

ردّد (ماهر) الكلمة أكثر من مائة مرة ، فى ذهول لم ينجح فى مفارقته ، وهو يجلس داخل حجرة صغيرة عارية من الأثاث ، باستثناء منضدة خشبية بسيطة ومقعدين ، يحتل هو أحدهما ، داخل قسم الشرطة فى (نيويورك) ..

لم يكن باستطاعته أبدا أن يستوعب أنه داخل الولايات المتحدة الأمريكية بالفعل ..

هذا مستحيل !

مستحيل تماما !

إنه واثق تمام الثقة من أنه أوى إلى فراشه فى (القاهرة) أمس ، على بعد آلاف الكيلو مترات من هذا المكان ..

وهو ليس مجنونا ..

ليس كذلك بالتأكيد !

فكيف حدث هذا ؟! ..

كيف انتقل خلال الليل من منزله فى حى (شبرا) فى (القاهرة) ، إلى سطح أعلى مبنى فى العالم أجمع ؟!..

كيف ؟!

كيف ؟!

التفسير المنطقى الوحيد هو أنه يحلم ..

وأن كل ما يحيط به مجرّد كابوس سخيف ، لن يلبث أن يستيقظ منه ..

ولكن هل يمكن أن يأتى الكابوس بكل هذا العمق والوضوح ؟!

وبأدق التفاصيل ؟!

لقد راودته كوابيس عديدة خلال عمره ، ولكن أيها لم يشبه هذا قط !

إنه يرى كل ما حوله فى وضوح تام ..

ويمرّ بكل لحظة مرورا ملحوظا محسوسا وملموسا ..

ولكن من يدرى ؟! ..

ربما تغيرت طبيعة الكوابيس ، كما تغيّر كل شىء فى الدنيا ..

ربما !!

انفتح الباب فى هذه اللحظة ، وبرز عنده رجلان ، أحدهما ضخم الجثة ، صارم الملامح ، والآخر وسيم ، أنيق ، أشيب الفودين ..

وبحركة سريعة ، اندفع الضخم إلى ركن الحجرة ، وعقد ساعديه أمام صدره القوى ، وهو يرمقه بنظرة صارمة مخيفة ، فى حين أغلق الوسيم الباب خلفه فى هدوء ، وتطلّع إليه لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ أهلا يا (ماهر) .. هل انتظرت طويلا ؟!

حدّق (ماهر) فى وجهه لحظة ، قبل أن يقول فى توتر بالغ ، بلغته الإنجليزية الركيكة :

ـ هذا حلم .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا الضخم فى صرامة ، فى حين ارتفع حاجبا الوسيم ، وهو يقول فى شىء من الدهشة :

ـ حلم ؟!

هزّ (ماهر) رأسه ، ولوّح بكفه فى عصبية ، قائلاً :

ـ أقصد أنه كابوس .. كابوس لن ألبث أن أستيقظ منه .. أليس كذلك ؟! .. هه .. أليس كذلك ؟!

تطلّع إليه الوسيم لحظات فى صمت ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، وجذب المعقد الآخر ، وجلس عند الطرف المقابل للمنضدة ، واستند إلى سطحها بمرفقيه ، ومال نحو (ماهر) ، قائلا :

ـ اسمعنى جيدا يا هذا .. لسنا ندرى كيف استطعت الوصول إلى سطح مركز التجارة العالمى ، ولا كيف تجاوزت نظم الأمن والحراسة ، دون أن يشعر بك أحد ، ونعترف بأن عملك هذا قد أثار انبهارنا قبل سخطنا ، ولكن لا داعى لأن يمتدّ ذكاؤك إلى محاولة التظاهر بالجنون ، للإفلات من العقاب ، فلدينا وسائل بارعة للغاية لكشف هذا .

تراجع (ماهر) مغمغما فى دهشة :

ـ التظاهر بالجنون ؟!

ثم اندفع مستطردا فى توتر بالغ :

ـ ولماذا أتظاهر بالجنون ؟! .. إننى سأصاب به فعليًا ، لو لم أجد تفسيرا لهذا الموقف !

تبادل الوسيم نظرة ضجرة مع الضخم ، ثم تراجع فى مقعده ، وسأل :

ـ أى موقف ؟!

لوّح (ماهر) بكفيه فى عصبية ، قائلاً :

ـ الموقف الذى أنا فيه ؟! .. كيف أويت إلى فراشى فى (القاهرة) ؟ ثم استيقظت لأجد نفسى فى (نيويورك) ؟!

أطلق الضخم صوتا أشبه بالزمجرة ، فى حين ردّد الوسيم :

ـ (القاهرة) ؟!

ثم زفر فى ضجر ، وهزّ رأسه ، قائلا :

ـ قلت لك : إن هذا لن يفيدك .

عضّ (ماهر) شفته السفلى غيظا ، وضرب سطح المنضدة بقبضته ، وهو يقول فى عصبية شديدة :

ـ لست أتظاهر بالجنون أو الغباء ؟! .. أقسم لكم إننى لا أفعل .. ألقونى فى السجن لو أردتم ، وجّهوا لى أية اتهامات تحلو لكم ، ولكن اشرحوا لى ما حدث .. أخبرونى ما حل هذا اللغز ! أخبرونى بالله عليكم .

زمجر الضخم مرة أخرى ، وقال :

ـ يبدو أن هذا الأسلوب لا يصلح للتعامل معه ..

أشار إليه الوسيم بالصمت ، ثم تطلّع إلى وجه (ماهر) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ هل تعلم أن المركز التجارى العالمى ينوى منحك مكافأة ؟!

اتسعت عينا (ماهر) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ مكافأة ؟!

أومأ الوسيم برأسه إيجابًا ، وقال فى حماس مصطنع :

ـ بالطبع .. لقد أنفقوا الملايين لتأمين المكان ، وتزويده بأحدث نظم الأمن والإنذار ، وعلى الرغم من هذا فقد نجحت أنت

فى اختراق وتجاوز كل هذا ، والوصول إلى السطح .. ألا يعنى هذا أنك عبقرى ؟ .. إنهم سيمنحونك المكافأة ، مقابل أن تشرح لهم كيف فعلت هذا ، حتى يمكنهم تفادى تكرار الأمر مستقبلا .

عضّ (ماهر) شفته مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ لن يمكننى إخبارهم بهذا قط .

سأله الوسيم فى اهتمام :

ـ ولماذا ؟

هتف (ماهر) فى حدة :

ـ لأننى أجهل كيف وصلت إلى هناك .

انعقد حاجبا الوسيم فى غضب ، وهو يقول :

ـ إنك لم تهبط من السماء إلى السطح بالتأكيد ، ولم تنشأ من العدم .. أم أنك تتصوّر أنك فعلت هذا أو ذاك ؟!

قال (ماهر) فى عصبية :

ـ إننى لم أفعل شيئا .. صدّق أو لا تصدّق ، ولكننى استيقظت لأجد نفسى هناك ، ولست أدرى كيف حدث هذا ؟!

ازداد انعقاد حاجبى الوسيم ، وأدار عينيه إلى الضخم ، قائلا :

ـ يبدو أنك على حق .. هذه الوسائل لا تصلح معه .

شمّر الضخم عن ساعديه ، وكشف عضلاته القوية ، وهو يقول :

ـ هل تجرب وسائلى أنا ؟!

تراجع (ماهر) فى مقعده ، هاتفا فى انزعاج :

ـ ماذا ستفعلون بى ؟!

أجابه الضخم ، وهو يتقدّم نحوه فى شراسة :

ـ سنجرى اختبارا ، لمعرفة أكبر عدد من القطع ، يمكن أن تتحطم إليه عظامك ..

قفز (ماهر) مبتعدا ، وهو يقول فى عصبية :

ـ إياك أن تقترب منى .

ارتسمت على شفتى الوسيم ابتسامة ، وهو يشير إلى الضخم ، قائلا :

ـ مهلا يا (سميثى) .. لم يحن وقت هذا بعد .

مطّ (سميثى) شفتيه ، وكأنما لم يرق له منعه من تحطيم عظام (ماهر) ، وتراجع فى سخط ؛ ليلتصق ثانية بالجدار ، ويعقد ساعديه أمام صدره ، فى حين التفت الوسيم إلى (ماهر) ، وقال :

ـ أستاذ (ماهر) .. لست أدرى لماذا تبذل كل هذا الجهد ، لتلفيق خطة لا يمكن أن يصدّقها أى رجل عاقل ؟! .. تهمتك ليست بالخطورة التى تتصوّرها .. لقد عثروا عليك نائما فوق سطح مركز التجارة العالمى فحسب ، ولم يضبطوك فى أثناء محاولة سرقة ، أو يعثروا معك على أية مسروقات أو مخدرات ، أما بالنسبة لتواجدك غير المشروع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فأنت حتى لم تحاول إنكاره ، بل تصرّ عليه بشدة فى قصتك ، فلماذا كل هذا التعقيد .

أجابه (ماهر) فى عصبية :

ـ لأننى لم أذكر سوى الحقيقة .

زمجر الضخم ، قائلا :

ـ دعنى أستخدم أسلوبى يا رجل .

هزّ الوسيم رأسه نفيا فى إصرار ، ثم تراجع فى مقعده ، وتطلّع إلى (ماهر) لحظات فى صمت ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، ثم قال :

ـ إذن فأنت تصرّ .

أجابه (ماهر) فى حزم :

ـ كل الإصرار .

صمت الوسيم لحظة أخرى ، ثم اعتدل يسأله :

ـ لن تمانع إذن فى الخضوع لاختبار كشف الكذب .

أجابه (ماهر) فى سرعة :

ـ مطلقًا .

بدا التوتر على الضخم ، وقال فى عصبية :

ـ وما الداعى لكل هذا ؟ .. إنها مجرّد قضية تافهة .. القوه فى السجن فحسب ، حتى يذكر الحقيقة .

أجاب الوسيم فى صرامة :

ـ دعنى أدير الأمور بطريقتى .

ثم التفت إلى (ماهر) ، وتابع بنفس اللهجة :

ـ اسمعنى جيدًا أيها الشاب .. سنخوض اختبار كشف الكذب بعد قليل ، وأريد منك أن تعلم أنه لو أكّد الجهاز أنك صادق ، أو أنك تؤمن بما تقول على الأقل ، فأعدك أن أستمع إلى قصتك ثانية بآذان جديدة ، أما لو ثبت أنك كاذب ، وأنك تخدعنا منذ البداية ..

لم يكمل عبارته ، ولكن النظرة الصارمة المتوعدة ، المطلّة من عينيه ، قالت أكثر مما يمكن أن ينطقه لسانه ، حتى إن (ماهر) ازدرد لعابه فى صعوبة ، وتمتم :

ـ اتفقنا .

أشاح الضخم بوجهه بعدم اقتناع ، وهو يغمغم :

ـ جهاز كشف الكذب يمكن خداعه (*) .

رمقه الوسيم بنظرة نارية ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم التفت إلى (ماهر) ، قائلا فى حزم :

ـ هيا بنا .

لم تمض دقائق على هذا الحوار ، حتى ضمت حجرة اختبارات كشف الكذب ثلاثتهم ، إلى جوار الخبير الخاص بالجهاز ، والذى راح يوصل الأسلاك بمعصمى (ماهر) وصدره ورأسه ، وهو يقول :

ـ قبل أن نبدأ ، أحب أن أنبهك إلى أن هذا الجهاز شديد الحساسية ، ومهمته أن يقيس التغيرات فى نبضك وضغطك ، ودرجة حرارتك ، وإفرازات العرق من جسدك ، مع إجابتك على الأسئلة التى توجّه إليك ، ومن السهل عليه أن يتبيّن ما إذا كنت تقول الحقيقة أم لا ، من خلال المنحنيات الدقيقة التى يرسمها طوال الوقت .

غمغم (ماهر) ، وهو يشعر فى أعماقه بتوتر حقيقى :

(*) حقيقة ، مع حسن التحكّم فى ردود الأفعال ، وبالتدريب المستمر ، يمكن للمرء خداع جهاز كشف الكذب ، حتى أن المحاكم الأمريكية ترفض الاعتراف بنتائجه ، ويتم استخدامه من قبل جهاز الشرطة فحسب ، لحسم وجهة النظر تجاه بعض القضايا الغامضة .

ـ لا بأس .

أومأ الخبير برأسه ، وقال :

ـ عظيم .. فى هذه الحالة ، وبعد موافقتك الرسمية على خوض الاختبار ، يمكننا البدء فيه .

مط الضخم شفتيه فى امتعاض ، وجلس الوسيم على مقعد قريب ، والاهتمام يطل من كل خلجة من خلجاته ، يراقب (ماهر) ، فى حين ضغط الخبير زر تشغيل الجهاز ، وهو يقول :

ـ فى البداية نلقى عددا من الأسئلة التقليدية ، مثل: ما اسمك بالضبط ؟

أجابه (ماهر) على الفور :

ـ اسمى (ماهر) .

ارتفع حاجبا الخبير فى دهشة ، وهو يحدق فى الجهاز ، وغمغم :

ـ مستحيل !

هب الوسيم من مقعده ، قائلا فى توتر :

ـ هل كذب فى قوله هذا ؟

رفع الخبير عينيه إليه ، وأرتج عليه لحظات ، وهو يشير إلى الجهاز ، قبل أن تندفع الكلمات من بين شفتيه عصبية متوترة مضطربة :

ـ هذه المنحنيات .. إننى أجرى هذه الاختبارات منذ أكثر من عشر سنوات ، ولكننى لم أر منحنيات مثلها قط .. إنها منحنيات عجيبة .. عجيبة للغاية .

ومرة أخرى ، انتفض جسد (ماهر) فى عنف .

ها هوذا اللغز يزداد تعقيدا ..

وبشدة .

* * *

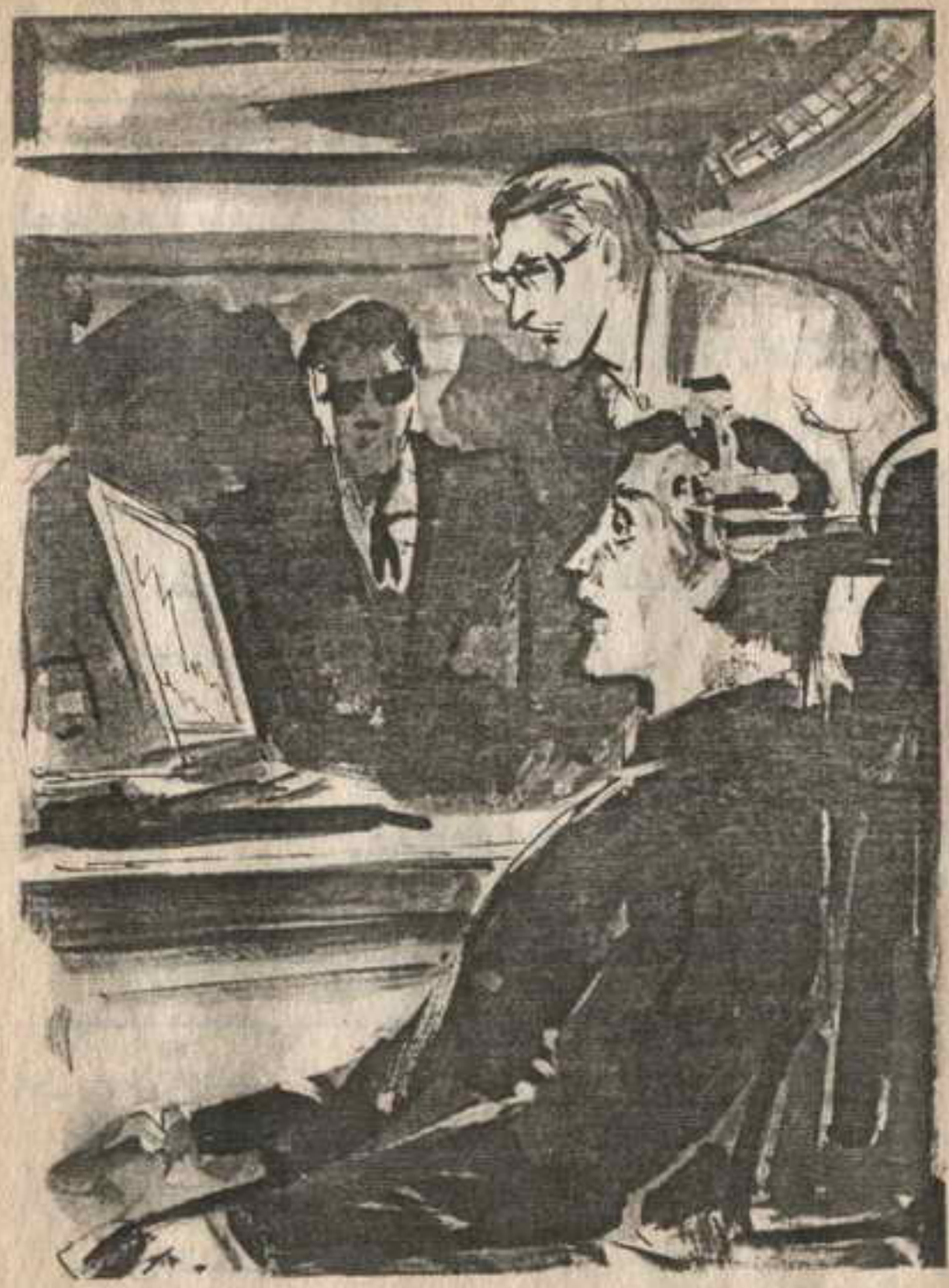

٢ ـ الغمـــوض !! ..

راجع خبير أجهزة كشف الكذب تلك المنحنيات ، التى سجّلها الجهاز مع (ماهر) ، أكثر من عشر مرات قبل أن يهز رأسه فى حيرة ، ويرفع عينيه إلى الوسيم ، قائلا :

ـ ليس هناك أدنى شك .. هذه المنحنيات لا يمكن أن تصدر عن إنسان طبيعى .

أومأ الوسيم برأسه متفهمًا ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ، فى حين قال (ماهر) فى عصبية واضحة :

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟! .. أنا إنسان طبيعى كما ترى .

هزّ الخبير رأسه مرة ثانية ، مغمغمًا :

ـ مستحيل !

زمجر الضخم ، قبل أن يقول :

ـ دعنى أحطّم عظامه ، وستجد أنها مجرّد عظام عادية ، قابلة للكسر .

رمقه الوسيم بنظرة صارمة ، فى حين قال (ماهر) متوترًا :

ـ لماذا مستحيل ؟! .. هل تجدنى أمامك بعين واحدة ، أم يبرز من رأسى هوائيان ؟!

تطلّع إليه الخبير لحظة فى صمت ، قبل أن يجيب فى شىء من الرهبة :

ـ من الناحية الشكلية ، أنت شخص عادى للغاية ، ولكن المنحنيات التى تصدرها أجهزتك الحيوية لا تقول هذا ، فكلها

معكوسة ، وكأنما انقلبت رأسًا على عقب .. العليا سفلى ، والسفلى عليا .

أطلّت دهشة حقيقية من عينى (ماهر) وهو يتمتم :

ـ معكوسة ؟! .. كيف ؟! ..

كان الوسيم يتطلّع إليه فى اهتمام ، وهو ينطق هذا ، وكأنما يحاول استشفاف حقيقة مشاعره ، والتقى حاجباه أكثر لثوان إضافية ، قبل أن يعتدل فى مجلسه ، ويقول فى حزم :

ـ يبدو أن الأمر بحاجة إلى مزيد من الفحوص .

ثم نهض مشيرًا إلى (ماهر) ، ومستطردًا :

ـ هيا بنا .

نهض (ماهر) فى ارتباك ، وهو يسأل :

ـ إلى أين ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ قلت : إن الأمر بحاجة إلى مزيد من الفحوص .

أشار إليهم الخبير ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ لحظة أيها السادة .. أريد إجراء اختبار بسيط ، قبل انصرافكم .

التفت إليه الوسيم ، قائلاً فى توتر :

ـ أى اختبار هذا ؟!

نهض الخبير إلى جهاز (تليفزيون) صغير ، وأشعله وهو يجيب :

ـ مجرّد اختبار بسيط .

ثم أشار إلى (ماهر) ، مستطردًا :

ـ هل يمكنك وضع يدك على هذه الشاشة ؟

بدت الدهشة على وجه (ماهر) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. ولكن ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

ارتسمت على وجه الخبير ابتسامة مرتبكة ، وهو يغمغم :

ـ سنرى .

التقى حاجبا الضخم فى تساؤل ، وبدا الاهتمام على وجه الوسيم ، فى حين تقدّم (ماهر) نحو جهاز (التليفزيون) فى اضطراب ، ومدّ يده نحو شاشته ، وهو يتمتم :

ـ لست أدرى ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ، ولا ما الذى ..

بتر عبارته بغتة ، عندما لامست يده الشاشة ، وانتفض جسده فى عنف ، وهو يجذبها بحركة حادة ، هاتفًا فى دهشة شاركه فيها الجميع :

ـ ما هذا ؟!

ففى نفس اللحظة ، التى لامست يده فيها الشاشة ، أصدر الجهاز فرقعة عجيبة ، ثم انكمشت الصورة كلها ، وكأنما تجذبها اليد خارج الشاشة .

وعندما ابتعدت يد (ماهر) ، عاد كل شىء إلى طبيعته دفعة واحدة ..

ولثوان ، ران على الحجرة صمت مشوب بالذهول ، استغرق ما يزيد قليلاً على نصف الدقيقة ، قبل أن يقطعه الخبير ، قائلاً فى صوت مرتجف ، من فرط الانفعال :

ـ أنت على حق .. الأمر يحتاج إلى مزيد من الفحوص .

ازدرد الوسيم لعابه فى صعوبة ، قبل أن يسأل بصوت مبحوح :

ـ أين ؟

مطّ الخبير شفتيه ، ولوّح بكفه ، وهو يجيب :

ـ لا توجد سوى جهة واحدة تصلح لإجراء الفحوص ، فى مثل هذه الحالة .

ثم صمت لحظة أخرى ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ـ (ناسا)(*)

وحسم قوله الكثير ..

* * *

جلس (ماهر) صامتًا تمامًا ، داخل الطائرة الصغيرة ، التى تنطلق به فى سماء الولايات المتحدة الأمريكية ، مع الوسيم والضخم ، فى طريقها إلى (ناسا) .

كان عقله يكاد ينفجر من تلك التطورات ، التى تتلاحق على نحو عجيب ، منذ الصباح الباكر ..

وكانت هناك عشرات الأسئلة الحائرة فى أعماقه التى تحتاج إلى أجوبة شافية .. تُرى كيف وصل إلى هنا ؟!..

(*) (ناسا) = (الإدارة القومية لطوم الطيران والفضاء) : الوكالة الأمريكية الحكومية المسئولة عن تطوير أبحاث الطيران والفضاء ، وهى وكالة مدنية ، تتبع فى مسئوليتها الرئيس الأمريكى مباشرة ، وترجع جذورها إلى عام ١٩١٤ م ، ومنذ ذلك الحين أصبحت أوّل مراكز أبحاث الطيران والفضاء فى العالم .

كيف أوى إلى فراشه فى (شبرا) ، ليجد نفسه صباحًا فى (نيويورك) ؟! ..

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

ثم ما الذى يحدث فى جسده ؟! ..

إنه لا يشعر بأية تغيرات ، ولكن الظواهر المحيطة به تؤكّد العكس تمامًا ..

منحنيات أجهزته الحيوية معكوسة ..

تأثيره على الأجهزة الإليكترونية ..

وما أداره ما سيأتى فيما بعد ، عندما يتعرّض لمزيد من الفحوص !! ..

هناك شىء ما تغيّر داخله بالتأكيد ..

ولكن ما هو ؟! ..

ولماذا ؟! ..

لماذا ؟! ..

« لقد وصلنا .. » .

انتزعه قول الوسيم من أفكاره ، فاعتدل فى مقعده ، وألقى نظرة عبر النافذة على المطار الصغير ، الذى هبطت فيه الطائرة ، قبل أن ينهض ليغادرها مع الرجلين ، واستقلّ ثلاثتهم سيارة سوداء ، نقلتهم إلى مبنى ضخم ، استقبلهم فيه رجل وقور أشيب الشعر ، حليق ، يرتدى منظارًا طبيًا ومعطفًا أبيض ، يحمل شعار (ناسا) ، تطلّع إلى (ماهر) فى اهتمام ، وهو يسأل الوسيم :

ـ أهذا هو ؟

أجابه الوسيم فى اقتضاب حازم :

ـ نعم .. إنه هو ..

أومأ الوقور برأسه متفهمًا ، وعاد يتطلّع إلى (ماهر) لحظة ، ثم استدار ، وأشار لهم بيده ، قائلاً :

ـ اتبعونى .

سار الثلاثة خلفه ، عبر ممرات طويلة متشابكة ، واستقلّوا مصعدًا إلى الطابق الثالث من المبنى ، ثم عادوا يعبرون الممرات ، حتى انتهوا إلى قاعة كبيرة ، تتوسّطها منضدة فحص ، أشبه بتلك المستخدمة فى عيادات الأطباء ، وعلى مقربة منها عدد من المقاعد ، استقرّ الوقور فوق أحدها ، وأشار إلى الآخرين بالجلوس ، ثم مدّ يده إلى الوسيم ، قائلاً :

ـ هل تحمل نتيجة الاختبار ؟

ناوله الوسيم مظروفًا ، التقطه فى لهفة ، والتقط منه ورقة الاختبار ، وراح يفحصها فى اهتمام كبير ، ثم خلع منظاره ، والتفت إلى (ماهر) ، قائلاً :

ـ خدعة طريفة يا فتى .

انتفض (ماهر) فى مقعده ، وهو يهتف :

ـ خدعة ؟!

وفى غلظة ، وضع الضخم يده على كتف (ماهر) ، قائلاً :

ـ اتكشف أمرك يا صاح .

أما الوسيم ، فكاد يقفز من مقعده ، هاتفًا :

ـ أتقول : إنها خدعة يا دكتور (هايدن) ؟!

هزّ الرجل كتفيه فى هدوء واثق ، وهو يقول :

ـ بالطبع .. وخدعة بسيطة أيضًا ..

قال (ماهر) فى عصبية :

ـ رائع .. هل يمكنك أن تشرح لى إذن تلك الخدعة البسيطة ، التى تجعلنى قادرًا على عكس اتجاه المنحنيات ، والتأثير فى الأجهزة الإليكترونية الحديثة ؟!

ابتسم الدكتور (هايدن) فى سخرية ، قائلاً :

ـ تلك المنحنيات لا تأتى من فراغ .. إنها انعكاس لذبذبات يطلقها جسدك من أجهزته الحيوية ، ويمكنك إرباك أجهزة القياس فى أى اتجاه ، بوساطة جهاز متغير الذبذبة ، تخفيه فى ثيابك .. أو حتى داخل جسدك .

حدّق (ماهر) فى وجهه بدهشة ، وهو يردّد :

ـ جهاز متغيّر الذبذبة ؟! ..

لم يدر لماذا بدا للاسم وقع خاص فى أعماقه ؟! ..

لماذا شعر بالقلق والخوف ، عندما أشار إليه العالم ؟! ..

تُرى هل يحمل بالفعل جهازًا كهذا ، دون أن يدرى ؟! ..

هل ؟! ..

ويبدو أن قلقه هذا قد انحفر فى ملامحه ، فلقد تطلّع إليه الوسيم طويلاً ، فى توتر بالغ ، قبل أن يلتفت إلى الدكتور (هايدن) ، قائلاً :

ـ هل يمكنك كشف الخدعة بوسيلة عملية ؟! .. أعنى هل يمكنك منحنا دليلاً على أن ما حدث مجرّد خدعة ؟!

تراجع الرجل فى مقعده ، وهو يرمق (ماهر) بنظرة ساخرة ، مجيبًا :

ـ هناك ألف وسيلة لهذا .. إننا سنخضعه لكل الفحوصات والاختبارات الممكنة .. سنفحص جسده بالأشعة السينية ، والموجات فوق الصوتية ، والرنين المغنطيسى ، ونعيد فحصه بأجهزة كشف الكذب ، وبوساطة خبير نفسى متخصّص .. صدقنى .. لن يمكنه خداعنا قط .

« فلنبدأ على الفور إذن .. »

انطلقت العبارة بكل الحزم والصرامة ، فاتسعت العيون فى دهشة ، وهى تحدّق فى وجه صاحبها ..

فى وجه (ماهر) ..

لقد نطق العبارة مخلصًا بحق ، فهو أكثر الحاضرين رغبة فى حل هذا اللغز العجيب ، ومعرفة السبب فى وجوده هنا ..

ولقد كان لعبارته تأثير قوى فى المكان ..

حتى الضخم حدّق فى وجه (ماهر) فى دهشة ، قبل أن يغمغم :

ـ عجبًا ! .. ألا تعترض على الخضوع لكل هذا ؟

أجابه (ماهر) فى حزم :

ـ مطلقًا .. أخضعونى لكل ما تريدون ، ولكن أبلغونى فى النهاية ماذا يحدث لى ..

وتحوّل حزمه إلى ثورة هادرة ، وهو يضيف مكرراً :

ـ ماذا يحدث لى ؟! ..

ارتفع حاجبا الدكتور (هايدن) فى دهشة بالغة ، وتلاشت سخريته تمامًا ، وهو يتطلّع إلى (ماهر) هذه المرة ، قائلاً :

ـ فليكن .. سنبدأ الاختبارات على الفور .

أومأ (ماهر) برأسه ، متمتمًا :

ـ هذا أفضل .. أفضل كثيرًا .

قالها بكل التوتر والانفعال فى أعماقه ، فهو على استعداد لفعل أى شىء فى الدنيا ، لو أن هذا يسهم فى العثور على تفسير منطقى ..

تفسير أكبر لغز فى عمره كله ..

* * *

لم تكن الفحوصات والاختبارات سهلة أو بسيطة ..

ولم تستغرق وقتًا محدودًا ، كما تصوّر (ماهر) ..

لقد قضى يومين متتاليين يخوض اختبارًا تلو الآخر ، ويخضع لفحص يليه ثان ، وثالث ، ورابع ، حتى خُيّل إليه أنه لم تعد هناك فحوصات أكثر فى الدنيا كلها ..

وطوال الوقت كان يشعر بشوق جارف لها ..

و (ياسمين) ..

فى كل لياليه تقريبًا كان يحلم بها ..

يحلم بأيام حبهما ، ولحظات سعادتهما ، وكفاحهما لتحقيق حلمهما.

وكان قلبه يخفق لهفة وشوقًا إليها ..

ولم يفارق السؤال ذهنه قط ..

كيف وصل إلى هنا ؟! ..

ولماذا ؟! ..

كان فى البداية يحاول إقناع نفسه بأن ما يحدث مجرّد كابوس ، سيمضى حتمًا ، ويستيقظ ليجد نفسه راقدًا فى فراشه فى (شبرا) ، فيهرع للاتصال بها ، ويروى لها ما رآه ، ويضحكان معًا ، قبل أن يخرج للبحث عن عمل من جديد ..

ثم لم يلبث أن ألقى الفكرة كلها خلف ظهره ..

أى كابوس هذا الذى يحيا أدق تفاصيله ، طوال ثلاثة أيام بلياليها ؟! ..

أى كابوس ، الذى يحرمه من حبيبته كل هذا الوقت ؟!

وعندما بدأت الاختبارات والفحوص ، خُيّل إليه أن الكابوس قد عاد ..

وأنه يحيا .. لأوّل مرة فى حياته .. كابوسًا حقيقيًا ..

لقد عامله الجميع بعدوانية وتحفّز فى البداية ، وبذلوا قصارى جهدهم لكشف الخدعة التى توهّموا قيامه بها ، ثم لم تلبث الحيرة أن أزاحت العدوانية من نفوسهم ، واشتركت مع الدهشة فى شعور جديد ، فجّر كل الفضول العلمى فى أعماقهم ، وجعلهم يبذلون قصارى جهدهم للبحث عن تفسير لتلك الظاهرة العجيبة ، التى يواجهونها فيه ..

إنه سليم تمامًا من الناحية التشريحية والطبيعية ، ولكن ما إن

يتعلّق الأمر بالالكترونيات وأجهزة الفحص ، حتى يختلّ كل شىء على نحو ما مربك للغاية ..

أجهزة رسم المخ والقلب تعطى منحنيات سليمة للغاية ..

ولكنها معكوسة ..

وحتى أجهزة الفحص بالأشعة ، والموجات فوق الصوتية ، والرنين المغنطيسى ، لا يمكن أن تعمل على نحو طبيعى مع جسده ، إلا لو تم عكس أقطابها ..

وعلى الرغم من هذا ، فكل شىء بداخله فى موضعه بالضبط ..

القلب ، والكبد ، والطحال ، والمعدة ..

وحتى فصا المخ ..

وطوال اليومين اللذين استغرقهما الفحص لم ير (ماهر) الوسيم أو الضخم لحظة واحدة ..

الدكتور (هايدن) وحده كان يشرف على كل ما حدث ، ويتابعه خطوة فخطوة ، ولا يحاول إخفاء دهشته أو انبهاره ، مع نتائجها العجيبة ..

وأكثر ما أثار دهشته وانبهاره هو الاختبار النفسى ..

لقد قام به ثلاثة من أكثر الأطباء النفسيين شهرة وخبرة ومهارة ، فى (أمريكا) كلها ، واتفق ثلاثتهم على أن (ماهر) يؤمن تمامًا بما يقوله ، وأنه ليس كاذبًا أو مخادعًا ، وإنما يجهل بالفعل كيف وصل إلى (نيويورك) ، وكيف عثروا عليه على سطح أعلى بناء فى العالم !! ..

وفى النهاية ظهر الضخم والوسيم ، عندما انتهت الاختبارات ، وقرأ الدكتور (هايدن) النتائج على مسامعهما ومسامع (ماهر) ، ثم تنهّد فى عمق ، وخلع منظاره الطبى ، قائلاً :

ـ خلاصة القول أن هذا الفتى ليس مخادعًا ، وأن شيئًا ما قد حدث له ، وتسبّب فى انتقاله بوسيلة ما ، مازلنا نجهل كنهها بالضبط ، من فراشه فى (القاهرة) ، إلى سطح مركز التجارة العالمى فى (نيويورك) ، وأن ذلك الشىء قد أثّر فى مغنطيسية جسده على نحو مدهش ، فانعكست أقطابه ، ولم يعد يتوافق مع مغنطيسية الأرض ، حتى أن البوصلة نفسها تصاب بالارتباك والخلل ، إذا ما اقتربت من جسده .

مطّ الضخم شفتيه ، وغمغم فى استهجان :

ـ غير معقول .

أما الوسيم ، فقد نقل بصره بين (ماهر) والدكتور (هايدن) لحظات ، قبل أن يسأل فى حزم :

ـ أهذا تقرير نهائى ؟!

أومأ الدكتور (هايدن) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بكل تأكيد .

هزّ الوسيم رأسه عدة مرات ، وكأنه يستجمع أفكاره ، والتقى حاجباه قليلاً ، وهو يفكّر فى عمق ، قبل أن يرفع رأسه إلى الدكتور (هايدن) ثانية ، ويسأله فى اهتمام بالغ :

ـ ألم تضعوا تصورًا تقديريًا لما حدث ؟

أجابه العالم بسرعة :

ـ بالطبع .

سأله الوسيم فى شىء من الحذر :

ـ وما هو ؟!

صمت العالم لحظة ، ثم أجاب :

ـ باعتبارنا من المتخصصين فى مجال الفضاء والطيران ، كان من الطبيعى أن تتجه عقولنا إلى تفسير واحد محدود .

سأله الوسيم :

ـ وما هو ؟

أدار الدكتور (هايدن) عينيه إلى حيث يجلس (ماهر) ، وتطلّع إليه فى اهتمام ، قبل أن يجيب بلهجة شديدة الحسم :

ـ أن هذا الفتى قد تعرّض للاختطاف من قبل مخلوقات من كوكب آخر .

انعقد حاجبا الضخم فى شدة ، وتراجع الوسيم فى مقعده ، وكأنما لم يباغته التفسير ، أما (ماهر) ، فقد قفز من مقعده ، وهو ينتفض فى عنف ..

لقد صدم هذا التفسير أعماقه بالفعل..

صدمها بكل العنف ..

وكل القسوة ..

* * *

« ستخضع لاختبار آخر .. »

نطق الوسيم تلك العبارة فى صرامة ، فالتفت إليه (ماهر) فى دهشة ، وقال فى توتر :

ـ اختبار آخر ؟!.. كنت أعتقد أننى خضعت بالفعل لكل الاختبارات الممكنة !

أجابه الوسيم بلهجة جافة ، لم يدر لها سببًا :

ـ إنه اختبار من نوع خاص .

ردّد (ماهر) فى قلق :

ـ من نوع خاص ؟!

أشاح الوسيم بوجهه ، قائلاً :

ـ نعم .. التنويم المغنطيسى .

هتف (ماهر) فى دهشة :

ـ تنويم مغنطيسى ؟! .. ولماذا ؟

ضرب الوسيم سطح المنضدة بقبضته ، وهو يجيب فى عصبية :

ـ بسبب الاحتمال الذى وضعه هؤلاء العلماء .

ونهض من مقعده فى حدة ، ودسّ كفيه فى جيبى سرواله ، وراح يتحرك فى الحجرة ، قائلاً :

ـ لو أن تفسير هذا اللغز ينحصر بالفعل فى أن مخلوقات فضائية قد اختطفتك ، فلن تكون هذه هى الواقعة الوحيدة لهذا ، فهناك عشرات الحوادث المسجّلة رسميًا فى هذا الشأن ، ولكن أشهرها على الإطلاق حادثة تعرف باسم (حادثة بارنى بيتى هيل) ، وهما زوجان ، كانا يسلكان طريقًا غير مأهول ، فى ساعة متأخرة من الليل ؛ لتوفير الوقت ، وهما فى طريق عودتهما إلى منزلهما ، بعد عطلة قضياها عند شلالات (نياجرا) الشهيرة ، ولكنهما وجدا نفسيهما بغتة على بعد خمسة وثلاثين ميلاً ، من البقعة التى كانا

فيها ، وقد مرّت عليهما ساعتان ، لا يذكران دقيقة واحدة مما حدث فى أثنائها ..

وتنهّد فى عمق ، ثم التفت إليه ، متابعًا :

ـ ولقد عانى الزوجان (هيل) اضطرابات نفسية شديدة ، مما دفعهما إلى اللجوء إلى طبيب نفسى ، أخضعهما للتنويم المغنطيسى ، كجزء من العلاج ، فوجد أمامه مفاجأة مدهشة .. لقد روى له الزوجان ، فى أثناء نومهما المغنطيسى هذا ، أن مخلوقات فضائية قد اختطفتهما ، فى طبق طائر ، وأجرت لهما بعض الفحوص ، ثم أطلقت سراحهما فيما بعد ، وكان للتفاصيل التى رواها الفضل الأعظم فى تقدم الأبحاث فى هذا الشأن (*) .

ازدرد (ماهر) لعابه فى صعوبة ، وهو يغمغم :

ـ هل تعنى أننى سأخضع للتنويم المغنطيسى للغرض نفسه .

أشار الوسيم بسبّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ بالضبط .

ثم شرد بصره بضع لحظات ، قبل أن يضيف :

ـ وأتعشّم أن يضع هذا نهاية للغز .

نطقها على نحو خفق له قلب (ماهر) فى عنف ، وجعله يتساءل فى توتر شديد ..

ترى هل سيحسم التنويم المغنطيسى الأمر ويضع تفسيرًا للغز ؟!.

هل ؟!

* * *

(*) واقعة حقيقية مسجّلة .

٣ ـ الأعماق ..

بذل (ماهر) قصارى جهده ليسترخى فى مقعده ، كما طلب منه خبير التنويم المغنطيسى ، وهو يتطلّع إلى ذلك الجسم اللامع ، الذى يتأرجح أمامه فى رتابة ، وصوت الخبير يتسلّل إلى أذنيه خافتًا عميقًا :

ـ اترك جسدك يسترخى .. لا تبعد عينيك عن الضوء .. نم .. دع الهدوء يتسلّل إلى أعماقك رويدًا رويدًا .. لا تقاوم .

لم تكن لدى (ماهر) أدنى نية للمقاومة ، وإنما كان أكثر لهفة على الخضوع للتنويم المغنطيسى ، لعله يكشف شيئًا من الغموض المحيط به ..

ورويدًا رويدًا ، راحت أعماقه تمتلئ باطمئنان عجيب ، وبدا له الضوء اللامع أمامه وكأنه يكبر ، ويتسع ، وينتشر ، وصوت الخبير يزداد عمقًا وهدوءًا ..

ثم لم تعد له أية سيطرة على إرادته ..

لم يعد الكون أمامه سوى مساحة هائلة بيضاء ، تنتظر توجيهات الخبير ، لتتلوّن بأحداث وذكريات ووقائع ..

وفى ارتياح ، اعتدل الخبير ، قائلاً :

ـ إنه نائم الآن .

مطّ الضخم شفتيه فى صمت ، فى حين بدا الوسيم متوترًا للغاية ، وهو يسأل خبير التنويم المغنطيسى :

ـ هل يمكنك أن تجزم بهذا ؟

سأله الخبير :

ـ بالطبع .. ماذا تعنى بسؤالك هذا ؟

أجابه الوسيم فى عصبية :

ـ أعنى أليس من المحتمل أنه يتظاهر بهذا ؟!

ارتسمت على شفتى الخبير ابتسامة ، وهو يجيب :

ـ آه .. الجواب هو : كلاً يا رجل .. لا يمكنه أن يتظاهر بالخضوع للتنويم المغنطيسى ، دون أن يكون خاضعًا له بالفعل ، ففى حالته هذه لا يستجيب بؤبؤعينه للضوء ، وينخفض معدّل تنفسه ونبضه إلى أقصى حد .

بدا شىء من الارتياح على وجه الوسيم ، وهو يغمغم :

ـ هناك علامات لهذا إذن .

أومأ الخبير برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع .. والآن هل نبدأ ؟!

اجابه الضخم بصوته الغليظ :

ـ ابدأ قبل أن يقتلنى الملل .

انعقد حاجبا الخبير ، على نحو يوحى بأن العبارة لم ترق له ، ثم التفت إلى (ماهر) ، وقال بصوت هادئ عميق :

ـ (ماهر) .. ادفع ذاكرتك إلى الخلف ، وعد بها إلى اللحظة التى وجدت نفسك فيها فوق سطح مركز التجارة العالمى .. هل يمكنك أن تفعل هذا ؟!

أومأ (ماهر) برأسه فى آلية ، قائلاً :

ـ نعم .. يمكننى هذا .

سأله الخبير :

ـ ما الذى تراه أمامك ؟!

أجاب (ماهر) فى آلية ..

ـ هليوكوبتر تحلّق فوقى ، وقائدها يطالبنى بتحديد هويتى ، وعدم مغادرة مكانى .

أدار الخبير عينيه إلى الوسيم ، الذى أومأ برأسه إيجابًا ، مؤيدًا قول (ماهر) ، فعاد الخبير إلى هذا الأخير ، وقال :

ـ دعنا نعد بذاكرتك بضع ساعات إلى الخلف .. إلى الليلة السابقة مباشرة .. ما الذى تتذكره ؟!

صمت (ماهر) لحظة ، ثم أجاب :

ـ عدت إلى منزلى ، وتناولت طعام العشاء ، ثم تحدثت هاتفيًا إلى (ياسمين) .

سأله الخبير :

ـ ومن (ياسمين) هذه ؟

أجابه (ماهر) على الفور :

ـ (ياسمين) خطيبتى .. إننا نحب بعضنا منذ أيام الدراسة .

أومأ الخبير برأسه متفهمًا ، قبل أن يقول :

ـ حسن .. ما الذى حدث بعد هذا ؟

أجابه (ماهر) :

ـ أويت إلى فراشى .

بدا الاهتمام على وجه الضخم ، عندما بلغ الخبير هذه النقطة ، ومال الوسيم برأسه إلى الأمام فى لهفة ، والخبير يقول فى اهتمام وتساؤل :

ـ ثم ؟!

صمت (ماهر) لحظة ، وكأنما يفتش فى عقله عن الجواب ، ثم لم يلبث أن قال فى شىء من التردُّد :

ـ ثم وجدت نفسى فوق سطح مركز التجارة العالمى .

تراجع الخبير فى دهشة ، وازداد انعقاد حاجبى الضخم فى شدة ، فى حين تمتم الوسيم :

ـ فقط ؟!

أشار إليه الخبير بالصمت ، وهو يسأل (ماهر) :

ـ لا يمكن أن تكون قد انتقلت من نقطة إلى أخرى فى لحظات قليلة كهذه .. لا ريب فى أنه هناك ما حدث بين الواقعتين .

صمت (ماهر) طويلاً هذه المرة ، ثم هزّ رأسه فى بطء ، مجيبًا :

ـ لست أذكر شيئًا .

التفت الخبير إلى الوسيم فى حيرة ، فغمغم هذا الأخير فى عصبية :

ـ قوله هذا مستحيل !! .. مهما كانت الوسيلة ، التى انتقل بها من (مصر) إلى هنا ، فهى تحتاج إلى بعض الوقت على الأقل .. كلنا نعلم أن أسرع طائرة تحتاج إلى اثنتى عشرة ساعة فى رحلة مباشرة كهذه .

هزّ الخبير رأسه ، قائلاً :

ـ إنه لم يستخدم طائرة بالتأكيد ، ثم إنه لا يستطيع الكذب ، وهو تحت تأثير التنويم المغنطيسى .

كررّ الوسيم فى حدة :

ـ مستحيل !

ثم سأل فى عصبية :

ـ ألا يحتمل أنه هناك ما يعوق قدرته على التذكُّر ؟! .. أعنى أن يكون قد خضع لجلسة تنويم مغنطيسى مسبقة ، تمنعه من الإفصاح عما فى أعماقه ، فى هذه الجلسة .

صمت الخبير لحظات ، انعقد خلالها حاجباه فى شدة ، وهو يدرس هذا الاحتمال ، ثم رفع رأسه إلى الوسيم ، قائلاً :

ـ هذا احتمال وارد بالفعل ، ولكن هناك وسيلة للتغلُّب عليها ، نطلق عليها اسم (الجسر) ، لأننا نعبر بوساطتها الأوامر السابقة ، التى تم غرسها فى العقل الباطن ، وندور حولها لتفاديها .

ثم تنحنح ، والتفت إلى (ماهر) ، قائلاً :

ـ قل لى يا (ماهر) : كم مرّ من الوقت ، ما بين دخولك إلى فراشك فى (القاهرة) ، واستيقاظك فى (نيويورك) ؟!

عد إلى ذاكرة ساعتك البيولوجية ، وحدد الوقت بمنتهى الدقة ..

صمت (ماهر) لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ ست عشرة دقيقة وسبع ثوان بالتحديد .

وكان هذا الجواب مفاجأة جديدة ..

مفاجأة أكثر عنفًا ..

* * *

تجهَّم وجه الدكتور (هايدن) ، وهو يتابع شريط الفيديو ، الذى يسجِّل جلسة التنويم المغنطيسى بكل تفاصيلها ، ثم تراجع فى مقعده ، ولوَّح بكفه للوسيم ، قائلاً فى حزم :

ـ الأمر لا يقبل الشك يا رجل .. ذلك الفتى لم يتعرَّض لاختطاف من أى نوع .. هذه ليست حالة من حالات لقاءات النوع الثالث(*)

(*) فى مجال البحث عن دلائل وجود أجسام طائرة مجهولة الهوية (UFO) ، يطلق على مشاهدتها اسم : (لقاء من النوع الأوّل) ، كما يطلق اسم (لقاء من النوع الثانى) على حدوث احتكاك مباشر معها ، أما (اللقاء من النوع الثالث) فيطلق على حدوث مقابلة مع مخلوقات من عالم آخر .

أومأ الوسيم برأسه موافقًا فى شىء من الضيق ، وقال :

ـ لم يعد هناك شك فى أنها ليست كذلك ، ولكن هذه النتيجة لاتمنحنا إلا المزيد من الغموض ، بالنسبة للغز .

رمقه الدكتور (هايدن) بنظرة طويلة ، قبل أن يميل إلى الأمام ، قائلاً :

ـ قل لى يا رجل ، لماذا أشعر وكأنك تخفى أمرًا ما ؟

مطَّ الوسيم شفتيه ، وغمغم :

ـ إنه عملى .

هزَّ الرجل كتفيه ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ ربما كانت طبيعة عملك تعتمد على كتمان الأسرار وإخفاء المعلومات ، ولكن لا ينبغى أن تخفى عنا أية أمور ، يمكن أن تفيدنا فى أبحاثنا .

صمت الوسيم بضع لحظات ، وكأنما يراجع حديث الدكتور (هايدن) فى عقله ، ثم لم يلبث أن تنهَّد ، ومطَّ شفتيه ، ونهض من مقعده ، واتجه إلى النافذة ، ووقف يتطلَّع عبرها بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ نحن نعلم منذ البداية أن الشاب لم يقض ليلته على سطح المبنى .

ارتفع حاجبا الدكتور (هايدن) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ تعلمون ؟!

أومأ الوسيم برأسه إيجابًا ، وتنهَّد مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. فالهليوكوبتر التى عثرت عليه قامت بدورة سابقة ،

قبل ذلك بعشرين دقيقة ، ولم يكن هناك أحد فوق السطح عندئذ .. لقد تصوّرنا فى البداية أن رجال الدورية الطائرة أرادوا التستر على إهمالهم ، ولكن تحقيقاتنا معهم أثبتت العكس ، مما أصابنا بالحيرة ، وجعلنا نتساءل عن كيفية وصوله إلى هناك ، دون أن يستخدم أية طائرات ، أو يتجاوز رجال أمن المبنى ، الذين قاموا بجولتهم التفقدية الأخيرة ، قبل تسليم عملهم للنوبتجية التالية ، قبل عشر دقائق فحسب من عثور الهليوكوبتر عليه !!

وهزّ رأسه فى بطء ، وهو يواصل التطلّع عبر النافذة ، ثم تابع :

ـ كان من العسير أن نهضم الفكرة ، أو نتصوّرها ، فالبشر لا يبرزون هكذا من العدم ، ولا يظهرون فوق أسطح المبانى بغتة ، دون سابق إنذار ، لذا فقد قررّنا استجوابه على نحو مدروس ، وبذل قصارى جهدنا لمعرفة ما خلفه .

مطّ الدكتور (هايدن) شفتيه ، وهو يقول :

ـ كنت أعلم أن الأمر ليس بسيطًا ، منذ أخبرونى أن المشتبه فيه سيصل بصحبة اثنين من رجال المخابرات المركزية ، وليس بصحبة رجال شرطة عاديين .

غمغم الوسيم :

ـ إنه لا يعلم أننا من المخابرات المركزية .

ران عليهما الصمت بضع لحظات ، ثم سأله الدكتور (هايدن) فى اهتمام :

ـ قل لى يا رجل : لماذا يبدو لى وكأن قصتك تنقصها بعض التفاصيل ؟

التفت إليه الوسيم فى بطء ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ كان ينبغى أن أدرك أنك أذكى من أن أتجاوز معك أية نقطة .. أنت على حق .. القصة ينقصها تفصيل واحد ، ولكنه بالغ الأهمية ، وخاصة بعدما قاله (ماهر) فى جلسة التنويم المغنطيسى .

سأله الدكتور (هايدن) فى شغف :

ـ وما هذا التفصيل المهم ؟

عاد الوسيم يتطلّع عبر النافذة ، ولاذ بالصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ بعد الحادث الإرهابى ، الذى تعرّض له مركز التجارة العالمى ، تم تزويده بدوائر أمنية خاصة ، بالغة الدقة والتعقيد ، تتحكّم فيها ثلاثة نظم مختلفة من الطاقة ، على نحو يضمن عدم توقفها عن العمل قط ، حتى ولو انقطع التيار الكهربى عن (نيويورك) كلها .

وصمت لحظة ، وكأنما يجد صعوبة فى الاستطراد ، ثم لم يلبث أن حسم أمره ، أضاف فى لهجة عصبية :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فقد توقّفت كل هذه الأجهزة والدوائر عن العمل لثانيتين كاملتين ، قبيل العثور على (ماهر) بدقائق معدودة .

وأدار عينيه فى بطء ، حتى واجهتا عينى الدكتور (هايدن) مباشرة ، وهو يستطرد :

ـ وفى رأينا أن لظهوره ارتباط مباشر بهذه الظاهرة ، التى لم يجد لها خبراؤنا أى تفسير آخر ، والتى تثير قلق رجال الأمن بشدة .

قالها ، واتجه نحو مكتب (هايدن) ، دون أن يرفع عينيه عنه ، وانحنى ليرتكز على سطح المكتب براحتيه ، ويميل نحو العالم ، قائلاً :

ـ وهذا يعنى أن التوصُّل إلى حل اللغز لا يحمل أهمية علمية فحسب .. بل وأهمية أمنية أيضًا .. هل فهمت ؟! ..

تطلّع (هايدن) إلى عينيه لحظات ، وأجاب فى حزم :

ـ بالتأكيد .

ثم تراجع بمقعده ، مستطردًا فى حنق واضح :

ـ كان ينبغى أن أدرك أن المخابرات المركزية الأمريكية لن تبذل كل هذا الجهد ، أو تبدى كل هذا الاهتمام ، من أجل العلم وحده .

هتف الوسيم فى حدة :

ـ حاول أن تفهم يا رجل .

وانتزع يديه من المكتب بحركة حادة ، ولوّح بهما فى عصبية ، مستطردًا :

ـ إننا أمام حالة فريدة من نوعها .. حالة يدّعى صاحبها أنه انتقل عبر الزمان والمكان بوسيلة مجهولة ، كل ما نعرفه عنها

هو أنها قادرة على إفساد كل الدوائر الكهربية ، أو عكس أقطابها لفترة محدودة .. هل تدرك ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ، لو أننا نجحنا فى تحديد هذه الوسيلة ، وفهم قوانينها وقواعدها ؟! .. إننا سنمتلك عندئذ أقوى سلاح فى الكون كله .. سلاح يمنح مقاتلينا القدرة على الظهور فى أى مكان بغتة ، ودون سابق إنذار .. هل تتصوّر هذا ؟!

حاول أن تتخيّل معى عدوًا يهدّدنا بسلاح قوى ، مثل الصواريخ ذات الرءوس النووية مثلاً ، ثم يجد رجالنا حوله بغتة ، على الرغم من كل ما اتخذه من إجراءات أمن وحماية .. ستكون مفاجأة مذهلة .. بل حاول أن تتخيّل لو أرسلنا قنبلة إلى فراشه مباشرة مثلاً ، أو حتى رأسًا نوويًا .. إنه سلاح بلا حدود يا رجل .. سلاح يضمن لنا التفوّق الدائم .

هتف (هايدن) فى حدة :

ـ وهل نفتقر إلى هذا التفوّق ؟! .. لقد صرنا بالفعل أقوى دولة فى العالم كله ، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى .

أشار الوسيم بيده ، قائلاً :

ـ وماذا عن (الصين) ؟! .. أليس دولة شيوعية متقدّمة أيضًا ؟! ألا تمتلك صواريخًا ذات رءوس نووية ؟! .. من أدرانا أنها لن تسعى لغزونا فى المستقبل ؟! .. هه .. من أدرانا ؟!

زفر الدكتور (هايدن) فى أسى ، وأشاح بوجهه ، قائلاً :

ـ لا فائدة من مناقشة مثل هذه الأمور مع أمثالك .

قال الوسيم فى غضب :

ـ ماذا تعنى بكلمة (أمثالك) هذه ؟ .. هل تتصوّر أن ..

قبل أن يتمّ عبارته ، اقتحم (سميثى) المكان فى عنف ، ولوّح بذراعه فى انفعال ، وهو يهتف بصوته الأجش :

ـ الرجل .. ذلك الذى ظهر على السطح .. إنـه يبدو وكأنـه .. وكأنه ..

هتف به الوسيم والعالم فى آن واحد :

ـ وكأنه ماذا ؟!

ازدرد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يجيب بصوت شارف الاختناق من فرط الانفعال :

ـ وكأنه يحترق ..

* * *

على الرغم من كل ما شاهده الدكتور (هايدن) من العجائب ، منذ بدأ عمله فى وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية ، إلا أن حاجباه ارتفعا فى دهشة بلا حدود ، وهو يحدّق فى (ماهر) ، الذى رقد على فراشه متصلّبًا ، وكأنما أصابته نوبة من داء الصرع ، ومئات الشرارات الصغيرة تتقافز على جسده ، من شتى النقاط إلى نقاط أخرى ، حتى أن جسده كله تألّق بضوء أزرق باهت ..

وفى ذهول ، هتف الوسيم :

ـ ما هذا بالضبط ؟! .. ماذا يحدث له ؟!

هزّ الدكتور (هايدن) رأسه بدهشة بالغة ، وهو يغمغم :

ـ لست أدرى .. أنا لم أشاهد ظاهرة كهذه فى حياتى كلها .. ربما .. ربما يحدث هذا بسبب تعارض أقطابه المغنطيسية مع أقطاب الأرض .

ثم استدرك بسرعة ، بلهجة أقرب إلى الهلع :

ـ وهذا مجرّد رأى أوّلى .. لا يستند إلى قواعد علمية .

حدّق الوسيم فى (ماهر) مرة أخرى ، ثم قال مرتبكًا :

ـ المهم هو ما الذى يمكن أن تؤدى إليه .

هزّ (هايدن) رأسه نفيًا ، وتنهّد ، قبل أن يجيب :

ـ لست أدرى يا رجل .. ربما كانت ظاهرة وقتية ، وربما ..

قبل أن يتمّ عبارته ، دوت فرقعة مكتومة فى الحجرة ، على نحو جعلهم يتراجعون جميعًا فى حركة غريزية .

ثم تلاشت الشرارات كلها دفعة واحدة ..

وعندئذ ..

عندئذ فقط ، استرخى جسد (ماهر) ، وراح يسعل فى قوة ، والعرق يغمر جسده فى غزارة ، وأنفاسه تتلاحق فى سرعة مخيفة ..

ولثوان ، وقف الجميع يتطلّعون إليه فى ذهول ، ثم اندفع الدكتور (هايدن) نحوه ، هاتفًا :

ـ يا للمسكين ! .. من الواضح أنه تعذّب كثيرًا .

مطّ الضخم شفتيه ، وغمغم :

ـ ولكنه لم يمت للأسف .

صاح به الوسيم فى غضب شديد :

ـ كفى يا (سميثى) .

فتح (ماهر) عينيه فى صعوبة ، وأدارهما نحو الدكتور (هايدن) ، وهمس فى تهالك وخفوت شديدين :

ـ ماذا يحدث لى ؟!

تنهّد (هايدن) ، وتمتم :

ـ ليتنى أعلم يا فتى .. ليتنى أعلم ..

اندفع الضخم يسأل فى لهفة :

ـ كيف كنت تشعر ؟! .. هه .. كيف ؟!

أغلق (ماهر) عينيه ، وتمتم فى تهالك :

ـ آلام رهيبة .. عنيفة .. عذاب لكل ذرة فى كيانى .

تمتم الدكتور (هايدن) :

ـ يا للمسكين !

أما الوسيم ، فقد اعتدل فى وقفته ، وشدّ قامته ، والتقى حاجباه ، وهو يتطلّع إلى (ماهر) فى توتر ملحوظ ، ثم جذب الدكتور (هايدن) إليه ، فى شىء من الخشونة ، وسأله :

ـ هل سيتكرّر هذا ؟!

بدا الضيق على وجه (هايدن) ، وهو يجذب ساعده من يده ، قائلاً :

ـ ومن أدراتى ؟!

قال الوسيم فى عصبية :

ـ كيف سنحل هذا اللغز إذن ، مادام كل واحد هنا لا يحمل سوى ذلك الجواب السخيف .. من أدراتى .. لست أدرى .. لا أحد يفهم من يجيب عن أسئلتنا إذن ؟!

أجابه (هايدن) فى حدة :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا .. افعلوا أنتم شيئًا .

أشار الوسيم إلى صدره ، هاتفًا :

ـ وهل تتصوّر أننا نقف ساكنين ، فى انتظار نتائجكم ؟! .. لقد بذلنا جهدًا خرافيًا بالفعل ، خلال اليومين السابقين يا رجل .. لقد راجعنا ملامح ذلك الشاب ، مع كل المحتالين فى (أمريكا) و(مصر) .. وفحصنا كل شبر من مركز التجارة العالمى ، وكل دائرة من دوائره الأمنية ، بل كل جهاز ، وكل ذرة سليكون فيها ، ومشّط خبراؤنا سطح المبنى ، وفحصوه بالأشعة ، دون الحمراء ، وتحت البنفسجية ، واختبروه بأجهزة تكنولوجية بالغة الدقة والحداثة ، حتى إنهم أحصوا عدد النمل المصاب بالتهاب المفاصل عليه .

سأله الدكتور (هايدن) فى اهتمام :

ـ وهل توصّلوا إلى شىء ؟!

عضّ الوسيم شفته السفلى فى مرارة ، وهو يجيب :

ـ مطلقًا .

ثم ضرب الجدار بقبضته ، مستطردًا فى غضب :

ـ لم يتوصّلوا إلى أدنى شىء للأسف .

فتح (ماهر) عينيه فى صعوبة ، وغمغم :

ـ هل فكّرتم فى سؤال عائلتى فى القاهرة ؟!

أجابه الوسيم على الفور :

ـ بالطبع .. رجال سفارتنا هناك يجرون اتصالاً معهم فى الوقت الحالى ، وسيصلنى تقرير منهم فى أية لحظة ، و ...

قاطعه أزيز متقطّع من جيب سترته ، فأسرع يلتقط هاتفه

المحمول (*) وهو يقول فى لهفة :

ـ أعتقد أن هذا هو التقرير المنتظر .

ووضع الهاتف الصغير على أذنه ، قائلاً :

ـ هه .. هل توصّلتم إلى شىء ؟!

واتسعت عيناه فى دهشة كبيرة ، وهو يهتف :

ـ أأنتم واثقون من هذا ؟

بدا القلق على وجه (ماهر) المتهالك ، فى حين تطلّع الضخم والعالم إلى الوسيم فى اهتمام ، وهو يستمع إلى محدّثه فى صمت ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

ـ نعم .. أحضروه إلى هنا بأسرع وسيلة ممكنة .

ثم أنهى المحادثة ، وأعاد الهاتف إلى جيب سترته ، وهو يتطلّع بنظرة صارمة إلى (ماهر) ، قائلاً :

ـ معلومات مدهشة من (القاهرة) .

سأله العالم فى لهفة :

ـ هل عرفوا شيئًا عن (ماهر) ؟

أومأ الوسيم برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بالطبع .. إنهم يعلمون عنه كل التفاصيل الآن .

(*) الهاتف المحمول : طراز حديث من هواتف الخدمة ، يمتاز بصغر حجمه ، وسعة دائرة اتصالاته ، وهو يعتمد على الأقمار الصناعية فى اتصالاته اللاسلكية ، على نطاق محدود أو دولى ، وهذا النوع من الهاتف لم يدخل إلى الخدمة فى (مصر) بعد ، ولكنه فى طريقه إلى هذا .

غمغم (ماهر) فى تهالك :

ـ كل التفاصيل ؟! .. ومن منحهم كل التفاصيل ؟

انعقد حاجبا الوسيم فى شدة ، وهو يجيب :

ـ منحها إياهم (ماهر المصرى) نفسه .

وعلى الرغم من إرهاقه وتهالكه الشديدين ، اعتدل (ماهر) ، هاتفًا :

ـ من ؟!

أجابه الوسيم بكل الغضب الهادر فى أعماقه :

ـ لقد سمعتنى يا هذا .. (ماهر المصرى) مازال يقيم فى منزله فى (شبرا) .. والسؤال الآن هو لماذا انتحلت شخصيته ؟ ومن أنت بالضبط ؟!

وجحظت عينا (ماهر) من فرط الذهول ، وعقله يردّد السؤال فى ارتياع ..

لو أن (ماهر المصرى) مازال فى (القاهرة) ، فمن يكون هو ؟!

من ؟!

من ؟!

* * *

٤ ـ المجهول ..

« مستحيل !! .. »

همس (ماهر) بالكلمة لنفسه ، وهو يجلس وحيدًا منكمشًا فى ركن حجرته الصغيرة ، التى سجنوه داخلها ، ووضعوا على بابها جنديًا ، ليمنعه من مغادرتها ..

وكان عقله يكاد ينفجر من فرط الدهشة والغضب ، وعدم التصديق ..

مستحيل ألا يكون هو (ماهر المصرى) !

مستحيل !

مستحيل !

ملامحه تؤكّد أنه هو ..

صوته ..

طبيعته ..

أحلامه ..

ذكرياته ..

هو (ماهر المصرى) ..

هو ..

لماذا إذن يصرّون على العكس ؟!

لماذا يحاولون إقناعه بأنه ليس هو ؟!

لماذا ؟!

كيف يمكنهم أن يشكّوا فى أمره ؟!

كيف يمكن أن يقولوا : إنه ليس (ماهر) ، الذى تخرّج فى كلية العلوم ؟! ..

الذى يحب (ياسمين) ..

ويحلم معها بعشّ هادئ سعيد ..

إنها مؤامرة ..

نعم .. مؤامرة لتجريده من هويته ، وبث الشك فى عقله ، لتحطيم ثقته بنفسه ..

لنسف كيانه ..

لسحق وجدانه ..

ولكن لماذا ؟!

كل ما يحدث يؤكّد أنهم يبذلون قصارى جهدهم لحل ذلك اللغز العجيب ..

يقاتلون لكشف الغموض ..

والوسيم يؤكّد له أن (ماهر المصرى) مازال هناك فى (القاهرة) ، وأنهم سيحضرونه إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلال ساعات محدودة ..

اثنتى عشرة ساعة بالتحديد ..

كيف يمكن أن يقولوا هذا ، مالم تكن لديهم ثقة تامة فيما يقولون ؟!

« مستحيل ! .. مستحيل ! .. مستحيل ! .. » ..

ردّد الكلمة فى عصبية شديدة ، وهو يضمّ ركبتيه إلى صدره ، ويدفن وجهه بينهما فى عنف .

لقد أخبره الوسيم أنهم تحققوا من شخصية ذلك الشخص فى (القاهرة) ، وتأكّدوا بكل ما يحمله من أوراق رسمية ، من أنه (ماهر المصرى) لا ريب ..

فمن يكون هو إذن ؟! ..

لا ..

لا ينبغى أن يستسلم لما يفعلونه به ..

لا ينبغى أن يراوده الشكّ لحظة واحدة فى أنه (ماهر المصرى) ، ولا أحد سواه ..

وهذا يعنى أيضًا وجود مؤامرة ..

شخص ما انتحل شخصيته فى القاهرة ، لسبب مجهول ..

وهذا الشخص هو المسئول عن إرساله إلى هنا ..

نعم .. هذا هو التفسير الوحيد ..

ولكن لماذا انتحل ذلك الشخص هويته ؟ ..

وكيف أرسله إلى هنا ؟! ..

كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

ومرة أخرى دفن وجهه بين ركبتيه ، وراح يردّد كلمة « مستحيل » بصوت أقرب إلى الصراخ والعويل ..

صوت يوحى بأن صاحبه قد بلغ الحافة ..

حافة الجنون ..

* * *

زفر الدكتور (هايدن) فى توتر شديد ، وهو يشير بسبّابته إلى الوسيم ، قائلاً فى حدة :

ـ لست أفهم موقفك يا رجل المخابرات .. لا يمكننى فهمه أبدًا .. فليكن هذا الشاب هو (ماهر المصرى) ، أو (جيمس دالاس) ، أو (فرناندو بترو) ، أو حتى (سنج سانج) .. أى فارق يصنعه هذا ؟! .. إننا مازلنا أمام لغز علمى شديد الغموض .. لغز ظهوره المباغت على سطح أعلى مبنى فى العالم كله ، والمفترض أن تتركز جهودنا كلها على محاولة حل اللغز ، وليس على السعى لكشف حقيقة شخصية الرجل .

اتعقد حاجبا الوسيم فى صرامة ، وهو يقول :

ـ خطأ يا دكتور (هايدن) .. هناك فارق رهيب ، بين كون هذا الرجل صادقًا أم محتالاً .. فارق لا يمكنكم إدراكه أيها العلماء .. فلو أن هذا الشخص ينتحل شخصية تخالف حقيقته ، فسيضعنا هذا أمام احتمال مخيف ، لابد لنا من مواجهته على نحو مباشر .

سأله (هايدن) فى عصبية :

ـ أى احتمال هذا ؟

أجابه فى صرامة :

ـ احتمال أن يكون جاسوسًا لدولة أخرى .

قفزت الدهشة من كل خلية من خلايا الدكتور (هايدن) ، وهو يهتف :

ـ جاسوس ؟!

لوّح الوسيم بيده ، قائلاً :

ـ نعم .. جاسوس لدولة سبقتنا فى السلم التكنولوجى ، وتوصّلت قبلنا إلى اختراع قادر على اختراق الزمان والمكان .

تراجع (هايدن) فى مقعده ، متمتمًا :

ـ أى تفكير هذا ؟!

تابع الوسيم ، وكأنه لم يسمع التعليق :

ـ من أدرانا أن وجود هذا الشاب هنا ليس نتاج التجارب الأوّلية لذلك الاختراع ؟! .. من أدرانا أن المحاولة التالية لن تكون لاحتلال البيت الابيض ، أو البنتاجون (*) ، أو لنسف قواعد صواريخنا النووية مثلاً ؟! .. كيف يمكن أن يغمض لنا جفن ، وهناك احتمال ألا نستيقظ من نومنا ثانية أبدًا ؟! ألا يمكنكم التفكير فى كل هذه الاحتمالات أيها العلماء ؟!

تطلّع إليه الدكتور (هايدن) لحظة فى دهشة ، ثم اعتدل فى جلسته ، قائلاً فى حدة واضحة :

ـ وهل نسيت أيها العبقرى أن ذلك الشاب قد خضع لعدد مخيف من الاختبارات ، وعلى رأسها التنويم المغنطيسى ، وأنه فى كل الأحوال لم يكن يكذب أو يخادع ، فى كل ما قاله ؟!

مطّ الوسيم شفتيه ، وقال :

ـ هذا يشير إلى أنه يؤمن بما قاله فحسب ، ولا يعنى أنه صادق فيه .

(*) البنتاجون : هو المؤسسة العسكرية الأمريكية ، والاسم مشتق من شكل المبنى الخماسى الأضلاع ، وهو يعد أضخم مبنى فى العالم أجمع ، ويوجد فى العاصمة الأمريكية (واشنطن) ، ومساحته حوالى اثنى عشر هكتارًا .

سأله (هايدن) فى عصبية :

ـ وما الفارق ؟!

أجابه فى حزم :

ـ ربما يؤمن بما قاله ، لأن هذا ما زرعوه فى أعماقه .. وما جعلوه يؤمن به .. إنها وسيلة قديمة ، استخدمت بنجاح فى الحرب العالمية الثانية ، وفى أثناء الحرب الباردة ، بيننا وبين السوفيت (*) وسيلة تعد تطويرًا رائعًا لأساليب غسيل المخ التقليدية ، مع الاستعانة ببعض الأجهزة الحديثة .

غمغم (هايدن) :

ـ يا له من تفكير شيطانى ؟! ..

حمل صوت الوسيم شراسة عجيبة ، لا تتناسب أبدًا مع مظهره الأنيق ، وهو يقول :

ـ لابد أن تفكر كالشياطين ، عندما تواجه الشياطين يا رجل .

ثم أشار إلى الضخم ، الذى ظلّ صامتًا طوال الوقت ، واستطرد وهو يتجه معه إلى الباب :

ـ وتذكّر أنك كنت ستفعل مثلنا ، لو أن هذا يخدم مسار العلم .

وغادر مع زميله الحجرة ، وصفقا بابها خلفهما فى قوة ، فتشبث الدكتور (هايدن) بمسندى مقعده ، وانقبضت عضلاته كلها ، وهو يستعيد عبارة الوسيم الأخيرة ..

(*) حقيقة تاريخية .

تُرى هل كان سيفعل مثلهما بالفعل ، لو أن هذا يخدم مسار العلم ؟! ..

كان يتمنى أن يأتيه الجواب سلبيًا ؛ ليشعر بأنه مازال آدميًا ، يقيم وزنًا للمبادئ والقيم ..

ولكن عقله صدمه بالحقيقة بلا رحمة ..

نعم .. الوسيم صادق فيما قاله ..

لو أن سحق (ماهر) سيخدم مسيرة العلم ، لما تردّد لحظة واحدة فى سحقه ، وهو يقنع نفسه بأنه يفعل هذا من أجل خير البشرية ..

لا فارق بينه وبينهما ..

لا فارق ..

دفن وجهه بين كفيه ، ونهر من المرارة والإحساس بالخزى والعار يتدفّق فى أعماقه ، و ...

وفجأة ، ودون سابق إنذار ، كما يحدث مع الكثير من العلماء ، قفزت إلى رأسه فكرة عجيبة ..

فكرة انطلقت بغتة ، من أعمق أعماق الباطن ، لتضع تفسيرًا للغز ..

وبحركة حادة عنيفة ، اعتدل فى مجلسه ، وجذب وجهه من بين كفيه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ رباه ! .. أمن الممكن أن ..

لم يتمّ تساؤله ، وإنما التقى حاجباه بشدة ، وعقله يجاهد لاستعادة نظرية علمية ، قرأها فى أحد المراجع ، ثم لم يلبث أن

نهض ، واتجه إلى مكتبته ، وراح يبحث فيها عن مرجع قديم ، يعود تاريخه إلى أوائل السبعينات ، ولم يكد يعثر عليه ، حتى التقطه فى لهفة ، وقلّب صفحاته ، وهو يغمغم :

ـ كم سيدهشنى أن أجد الجواب هنا ! .. ستكون مصادفة عجيبة بالفعل ! .. عالم مصرى يضع نظرية تفسّر لغز وجود مصرى آخر ، بعد أكثر من ربع القرن !! .. أهذا ممكن ؟!

ثم توقّف عند صفحة بعينها ، وراح يلتهم كلماتها التهامًا ، ودرجة حرارة عقله ترتفع وترتفع وترتفع ..

ومع كل سطر يمضى ، كان يزداد ثقة بأنه قد عثر أخيرًا على الحل .. حل ذلك اللغز ..

لغز (ماهر المصرى) ..

* * *

تصاعدت حدة التوتر فى أعماق (ماهر) إلى الذروة ، عندما وجد نفسه أمام الوسيم والضخم ، فى حجرة كبيرة ، مع رجلين يرتديان معطفين أشبه بمعاطف الأطباء ، فسأل فى عصبية :

ـ ماذا ستفعلون بى بالضبط ؟

رمقه الوسيم بنظرة صارمة ، قبل أن يجيب فى خشونة :

ـ لا تخش شيئًا يا هذا .. إنه مجرّد اختبار بسيط .

هتف (ماهر) فى حدة باللغة العربية :

ـ اختبار آخر ؟! لا .. لن أخضع لأية اختبارات أخرى كفاكم ما فعلتموه بى حتى الآن .. لم أعد أحتمل المزيد .. أرسلونى إلى السجن ، أو أعيدونى إلى (القاهرة) ، ولكننى لن أخضع لأية اختبارات أخرى .. لن أفعل .. لن أفعل .

تمتم أحد صاحبى المعاطف البيضاء فى قلق :

ـ يلوح لى أنه يوشك على الإصابة بانهيار عصبى .. إنه يصرخ بالعربية ، دون أن ينتبه إلى أننا لا نفهم حرفًا واحدًا مما يقول ، وهذا يعنى أن إدراكه قد تشوّش ، وأن الـ ...

قاطعه الوسيم فى صرامة :

ـ لا تقلق نفسك بهذا الأمر .

ثم التفت إلى (ماهر) ، وقال بحزم شديد :

ـ اسمع يا هذا .. ثورتك لن تجدى شيئًا .. إنك ستخضع لهذا الاختبار ، شئت أم أبيت ، وكل ما أستطيع ان أعدك به هو أن يكون الاختبار الأخير بالنسبة لك .

كانت مشاعر (ماهر) كلها تلتهب بثورة عارمة ، ولكنه قاوم كل هذا ، وهو يسأل الوسيم :

ـ أى اختبار هذا ؟

شدّ الوسيم قامته ، وهو يجيب :

ـ مصل الحقيقة .

هتف (ماهر) :

ـ ماذا ؟!

أجابه الوسيم فى سرعة :

ـ مصل الحقيقة .. (بنتوثال الصوديوم) ، الذى استخدمه الألمان قديمًا ، لانتزاع الاعترافات من الجواسيس .. إنه مادة تجعلك فى حالة أشبه بالغيبوبة ، ولكنك قادر على السمع والرؤية والتحدُّث ، مما سيجعل من العسير عليك أن تكذب ، ولن يمكنك إلا أن تجيب بكل صدق وعفوية (*) .

بدا مزيج من التوتر والتردُّد والقلق على وجه (ماهر) ، فسأله الضخم فى خبث :

ـ هل يخيفك هذا ؟

التفت إليه (ماهر) ، وقال فى عصبية :

ـ كلاَّ .. لو أنه سيثبت لكم أننى (ماهر المصرى) الحقيقى .

قال الوسيم فى صوت قاس :

ـ سنرى .

ثم أشار إلى مقعد كبير فى منتصف الحجرة ، مستطردًا :

ـ هيا .. دعنا نبدأ الاختبار .

(*) حقيقة علمية وتاريخية .

بدأ أحد الرجلين الآخرين فى إعداد المحقن والمادة ، فى حين جذب الآخر (ماهر) فى رفق إلى المقعد ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. المصل لا يسبّب أية أمراض جانبية جادة .. فقط ستفقد توازنك لبعض الوقت ، ثم ..

قاطعه (ماهر) بغتة ، وهو يشير إلى هاتف قريب فى لهفة :

ـ آه .. هناك هاتف .

انعقد حاجبا الوسيم ، وهو يقول :

ـ ماذا تريد من الهاتف ؟

أجابه (ماهر) بسرعة :

ـ أريد التحدُّث إلى (القاهرة) .

ازداد انعقاد حاجبى الوسيم ، وقال :

ـ (القاهرة) ؟! ولماذا ؟!

أجاب (ماهر) فى لهفة واضحة :

ـ لا ريب فى أن خطيبتى (ياسمين) تشعر بقلق هائل الآن ، فأنا متغيّب منذ ثلاثة أيام .. أريد أن أتحدّث إليها ، وأخبرها أننى بخير هنا .

تبادل الوسيم نظرة صامتة مع الضخم ، الذى عقد حاجبيه بدوره ، وكأنما لا يروق له هذا ، ولكن الوسيم حكّ ذقنه بسبّابته وإبهامه بعض الوقت ، ثم قال :

ـ فليكن .. أعتقد أن هذا يمكن أن يفيد .

ثم استدرك فى حزم :

ـ ولكننى سأستمع إلى المحادثة .

لم يشعر (ماهر) بالارتياح لهذا ، ولكنه غمغم :

ـ لا بأس ، ولكن تذكر أننا سنتحدث أنا وخطيبتى بالعربية ، وليس بالإنجليزية .

تمتم الوسيم :

ـ أعلم هذا .

التقط (ماهر) سماعة الهاتف فى لهفة ، وطلب رقم خطيبته (ياسمين) فى القاهرة ، واستمع إلى رنين الهاتف على الطرف الآخر فى عصبية ، وخفق قلبه فى عنف ، عندما فتح الخط ، وكاد يصرخ من الفرحة ، عندما سمع صوت (ياسمين) الرقيق ، وهى تقول :

ـ آلو .. من المتحدث ؟!

هتف بكل سعادته ولهفته :

ـ إنه أنا يا (ياسمين) .. أنا .

لم تبد فى صوتها تلك اللهفة التى توقعها ، وهى تقول :

ـ (ماهر) ؟! .. من أين تتحدث ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ من الولايات المتحدة الأمريكية .. لا تجعلى هذا يدهشك .. لقد وصلت إلى هنا بأسلوب عجيب ، و ...

قاطعته (ياسمين) فى دهشة :

ـ وصلت إلى هناك ؟! ولكن هذا مستحيل يا (ماهر) .

قال متوترًا :

ـ قلت لك : إنها ..

ولكنه فوجئ بها تتابع بنفس الدهشة :

ـ لقد أوصلتك بنفسى إلى المطار منذ ساعة واحدة .

انعقد حاجبا الوسيم فى شدة ، فى حين اتسعت عينا (ماهر) عن آخرهما ، وهو يقول بصوت لا يكاد يخرج من حلقه المختنق :

ـ أوصلتنى بنفسك .

أتاه صوتها ، وهى تقول :

ـ مزحة طريفة ومكشوفة يا (ماهر) .. أنا أعلم بالطبع أنك تتحدث من المطار .. قل لى .. هل تأخر إقلاع الطائرة ؟!

ألجم الذهول لسانه ، وخنق الكلمات والمشاعر فى أعماقه ، فاكتفى بالتحديق فى الهاتف بنظرة بلهاء ، وصوت (ياسمين) يتردد ، قائلاً :

ـ ألو .. (ماهر) .. هل تسمعنى ؟! .. ماذا حدث يا (ماهر) ؟ ماذا حدث ؟! ضغط الوسيم زر الهاتف ، وأنهى الاتصال ، ثم التقط السماعة من يد (ماهر) ، وأعادها إلى موضعها ، وهو يتطلع إليه بنظرة حازمة ، جعلت (ماهر) يغمغم :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نبدأ الاختبار .

وفى خطوات بطيئة متثاقلة ، اتجه نحو المقعد ، وألقى نفسه فوقه ، ومد يده إلى صاحب المعطف الأبيض ، ليحقنه بمصل الحقيقة ..

الحقيقة ، التى صار أكثر الجميع رغبة فى معرفتها ..

الحقيقة ، التى أصبحت بالنسبة إليه مجرد جواب لسؤال محدود ..

ترى من هو ؟!

من ؟!

* * *

خفق قلب الدكتور (هايدن) فى عنف ، وهو يدلف بسيارته إلى ذلك الحى الأنيق ، الذى يضم فيلات العلماء ، الذين عملوا أو يعملون لحساب (ناسا) ، وانحرف إلى اليسار ، ليتجه نحو فيلا صغيرة ، بدت مهملة إلى حد ما ، مقارنة بالفيلات المحيطة بها ، وتوقّف أمام سورها الخشبى القصير ، وغادر سيارته ليعبر حديقتها ، التى ارتفعت حشائشها على نحو زائد ، وهو يغمغم مبتسمًا :

ـ من الواضح أن العلم مازال يشغلك عن حياتك اليومية يا دكتور (عرفان) .

وهزّ رأسه لحظة ، قبل أن يدقّ جرس الباب ..

ولبعض الوقت ، خُيّل إليه أن الفيلا خالية ، لولا أن تناهى إلى مسامعه وقع أقدام تقترب من الباب ، فتنحنح ، وشدّ قامته ، وعدّل من هندامه ، قبل أن ينفتح الباب ، ويظهر على عتبته شيخ فى أوائل السبعينات من عمره ، يتمتّع بصحة جيّدة ، على الرغم من شعره القليل ، الذى وخطه الشيب عن آخره ، ومنظاره الطبى السميك ، الذى تطلّع من خلفه إلى الدكتور (هايدن) ، قائلاً :

ـ لو أنك بائع جائل ، أو مندوب إحدى المجلات العلمية ، فليس لدى أدنى استعداد لـ ..

قاطعه (هايدن) ، وهو يقول بابتسامة كبيرة :

ـ ألا تذكرنى يا دكتور (عرفان) ؟!

تطلّع إليه الشيخ بضع لحظات ، من خلف منظاره الطبى ، قبل أن يغمغم فى حيرة :

ـ وهل المفترض أن أفعل ؟

أجابه (هايدن) ، دون أن تفارقه ابتسامته :

ـ أنا (هايدن) .. الدكتور (دوارد هايدن) ، .. كنت تلميذك منذ ثلاثين عامًا ، وعملت كمساعد لك ، فى أوائل السبعينات .

ردّد الدكتور (عرفان) :

ـ (هايدن) .. آه .

لم يبد عليه أنه تذكّر الرجل ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، تراجع قليلاً عن الباب ؟ ليفسح له المجال للدخول ، وهو يقول :

ـ تفضّل يا دكتور (هايدن) .. مرحبًا بك فى منزلى .. تفضل .

دلف الدكتور (هايدن) إلى المكان ، وانتظر حتى استقرّ بهما المقام فى الردهة ، ثم قال دون مقدمات :

ـ أنا هنا من أجل نظريتك القديمة يا دكتور (عرفان) .

انعقد حاجبا الشيخ ، وهو يغمغم :

ـ نظريتى القديمة ؟!

أجابه بسرعة ولهفة :

ـ نعم .. تلك النظرية التى وضعتها فى بداية السبعينات ، والتى أثارت جدلاً علميًا واسعًا حولها ، فى ذلك الحين .

تألّق بريق حيوى فى عينى الشيخ ، وهو يقول :

ـ آه .. تلك النظرية .. إنهم لم ينجحوا فى استيعابها قط .. ربما أمكنهم هذا بعد عدة سنوات ، إذا ما نجحوا فى ...

قاطعه (هايدن) :

ـ أعتقد أن لدى دليلاً على صحة نظريتك .

لم يكد ينطق عبارته ، حتى خيُّل إليه أن ارتجافة عنيفة قد سرت فى جسد الشيخ ، الذى زاغت نظراته لحظة ، قبل أن يدفع جسده إلى الأمام ، هاتفًا :

ـ دليل ؟!

أومأ الدكتور (هايدن) برأسه إيجابًا ، ودفع إليه بمظروف كبير ، يحوى كل شىء عن (ماهر) ..

قصته ..

نتائج فحوصاته واختباراته ..

تقرير الطب النفسى ..

جلسة التنويم المغنطيسى ..

كل شىء ..

وبأصابع مرتجفة بفعل العمر والانفعال ، التقط الدكتور (عرفان) المظروف ، وفضّه فى لهفة ، وراح يطالع الأوراق .

وكان من الواضح أن الدكتور (هايدن) قد أصاب الهدف المنشود بكل دقة ..

لقد اتسعت عينا الدكتور (عرفان) ، وتألقتا ببريق يفيض بالحيوية والنشاط ، حتى بدا وكأنما انخفض عمره عشرين عامًا على الأقل ، وهو يمضى قدمًا فى مطالعة الأوراق والنتائج ، ثم لم

يلبث أن اعتدل فى النهاية ، وخلع منظاره الطبى ، وبدت عيناه مغرورقتين بالدموع ، وهو يتمتم :

ـ أخيرًا .

هتف به (هايدن) :

ـ أتعنى أن نظريتك تنطبق على تلك الحالة ؟

أومأ الدكتور (عرفان) برأسه إيجابًا ، قبل أن يتمتم فى انفعال :

ـ تمامًا .. كل شىء ينطبق على هذه الحالة بمنتهى الدقة .

سأله (هايدن) :

ـ حتى تلك الشرارات الكهربية التى ..

قاطعه (عرفان) ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ كل شىء .. كل شىء ..

ثم مال أكثر إلى الأمام ، حتى كاد يسقط من مقعده ، وهو يستطرد فى لهفة :

ـ أريد أن أرى ذلك الشاب .. أريد أن أفحصه ، قبل فوات الأوان .

تراجع (هايدن) فى دهشة ، مردّدًا :

ـ قبل فوات الأوان ؟!

أومأ الدكتور (عرفان) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع .. التجربة التى خاضها عنيفة للغاية ، حتى وإن لم يشعر بأدنى ألم عند مروره بها ، وسينهار جسده رويدًا رويدًا ، حتى يلقى مصرعه .

هتف (هايدن) فى انزعاج :

ـ رباه ! .. ألا يمكن تفادى حدوث هذا ؟!

رفع الدكتور (عرفان) سبّابته أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ هناك وسيلة واحدة .

سأله (هايدن) فى لهفة :

ـ ما هى ؟!

اعاد الدكتور (عرفان) منظاره إلى أنفه ، وأشار بسبّابته إلى الأمام ، مجيبًا فى حزم :

ـ أن نعيده من حيث أتى .

وحان دور الدكتور (هايدن) لينتفض فى عنف ..

فلقد بدا له أن الحل الوحيد للمشكلة هو المستحيل !

المستحيل بعينه !

* * *

٥ ـ هروب ..

هزّ (سميثى) الضخم رأسه فى شىء من الحيرة ، وهو يسأل الوسيم بصوت خشن غليظ :

ـ ما رأيك فى هذا الأمر ؟! .. هل تعتقد حقًا أن ذلك الشاب ينتحل شخصية أخرى ؟!

أجابه الوسيم فى صرامة ، وهو يرفع قدميه فوق سطح مكتب صغير ، فى الحجرة التى يحتلانها :

ـ ليس من حقنا أن نعتقد ونتصوّر يا (سميثى) .. فى عملنا هذا لا يحق لنا الاعتماد إلا على الأمور الواضحة ، ذات الدلالات المادية القوية ، التى لا تقبل الشك .

قلب (سميثى) كفيه فى حيرة ، وهو يغمغم :

ـ وما الأدلة التى لا تقبل الشك فى هذه القضية ؟! .. إن كل شىء يبدو بالنسبة لى مشوّشًا مضطربًا ، وبالغ العجب والغرابة .

أشار الوسيم بيده ، قائلاً :

ـ مازالت هناك أمور يمكن التيقُّن منها .

سأله (سميثى) فى اهتمام :

ـ مثل ماذا ؟!

لوّح الوسيم بكفه ، وأسبل جفنيه فى إرهاق ، قائلاً :

ـ لقد طلبت من رجالنا فى (القاهرة) إرسال صورة (ماهر) بوساطة (الفاكس) ، مع نسخة من بصماته .

سأله الضخم :

ـ وهل تعتقد أن هذا سيحسم شيئًا ؟!

هزّ الوسيم كتفيه ، دون أن يجيب ، وأغلق عينيه تمامًا ، على نحو يوحى بالنوم ، وران على الحجرة ، صمت ثقيل ، استغرق ثوان معدودة ، قبل أن يرتفع رنين الهاتف المتصل بجهاز (الفاكس) ، فاعتدل الوسيم فى حركة حادة ، وكاد يختطف الورقة التى برزت من الجهاز ، فى شدة لهفته ، ومال الضخم برأسه ليلقى نظرة عليها ، ثم هتف فى دهشة :

ـ عجبًا ؟ .. إنه صورة طبق الأصل من ذلك الذى نحتجزه .

انعقد حاجبا الوسيم فى شدة ، على نحو يشفّ عن عدم ارتياحه لهذه النتيجة ، وغمغم فى شىء من العصبية :

ـ هذا أمر طبيعى .. لن ينتحل شخصيته آخر ، دون أن يشبهه تمامًا فى ملامحه .. جراحات التجميل جعلت هذا أمرًا ممكنًا .

ثم التقط نسخة البصمات ، وتطلّع إليها لحظات فى صمت ، قبل أن يضغط أحد أزرار الهاتف ، ويقول فى لهجة آمرة :

ـ أرسلوا شخصًا لأخذ نسخة بصمات ، أريد مقارنتها ببصمات ذلك المصرى على الفور .

سأله الضخم ، وهو مازال يتطلّع إلى الصورة المرسلة بالفاكس فى دهشة :

ـ ما الذى تتوقّعه من مقارنة البصمات ؟

مطّ الوسيم شفتيه ، وتنهّد فى عمق ، قبل أن يغمغم :

ـ من يدرى ؟! .. ربما تحمل لنا تلك المقارنة جديدًا .

قالها دون أن يدرك أنه نطق نبوءة جديدة ..

فمقارنة البصمات ستحمل له حتمًا أمرًا جديدًا ..

ومدهشًا ..

مدهشًا للغاية ..

* * *

اعتدل الجندى الواقف عند باب حجرة (ماهر) فى احترام ، عندما اقترب منه الدكتور (هايدن) والدكتور (عرفان) ، وأشار إليه الأوّل ، وهو يقول فى لهجة حازمة آمرة :

ـ أحضر الشاب ، سنجرى عليه اختبارًا آخر .

ارتفع حاجبا الجندى فى دهشة ، وهو يختلس نظرة إلى ساعة الحائط ، التى تشير عقاربها إلى قرب منتصف الليل ، وقال فى تردُّد :

ـ معذرة يا دكتور (هايدن) ، ولكن أوامر الـ ...

قاطعه (هايدن) فى صرامة :

ـ لحساب من تعمل يا رجل .

ارتبك الجندى ، وهو يجيب :

ـ لحساب (ناسا) يا سيّدى .

أزاحه (هايدن) جانبًا ، وهو يقول بلهجة صارمة غاضبة :

ـ لا تطع إلا أوامر رجال (ناسا) إذن .

بدا القول منطقيًا للغاية ، بالنسبة للجندى ، فشدّ قامته ، وأدّى التحية العسكرية بحركة آلية ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا سيّدى .

دلف الدكتور (هايدن) إلى حجرة (ماهر) ، وخلفه الدكتور (عرفان) ، الذى يدفع قدميه دفعًا ، ويبذل قصارى جهده لمقاومة لهفته وفضوله ، اللذين عجزا عن الاختفاء فى أعماقه ، عندما أصبح داخل الحجرة ، فهتف مشيرًا إلى (ماهر) :

ـ أهذا هو ؟!

اعتدل (ماهر) على فراشه بحركة حادة ، وتراجع هاتفًا فى هلع :

ـ ماذا هناك ؟! .. ماذا تريدون منى هذه المرة ؟!

ربّت الدكتور (هايدن) على كتفه فى رفق ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا فتى .. نحن هنا لمساعدتك .

ردّد (ماهر) فى شك :

ـ مساعدتى ؟!

مال (عرفان) نحوه ، وتطلّع إلى وجهه بشغف شديد ، قبل أن يهمس :

ـ سنعيدك من حيث أتيت .

اتسعت عينا (ماهر) عن آخرهما ، وكاد فكه السفلى يسقط من فرط الدهشة ، وهو يهتف :

ـ ماذا ؟!

ربّت (هايدن) على كتفه ثانية ، وهمس فى أذنه :

ـ ثق بنا يا فتى ، ولا تبد أية انفعالات ، يمكن أن تثير شكوك الحارس .. هيا .. اتبعنا .. إننا نسعى حقًا لمعاونتك على الخروج من هذا الموقف .

كانت الدهشة تغمر (ماهر) ، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه جعله ينهض ، ويتبعهما فى صمت ، عبر ممرات المبنى المتشابكة ، حتى وصل ثلاثتهم إلى سيارة كبيرة ، تنتظر فى موقف السيارات ، دفعه الدكتور (هايدن) داخلها ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أسرع بالله عليك .. ليس لدينا الكثير من الوقت .

وما أن أصبح الثلاثة داخل السيارة ، حتى انطلق بها الدكتور (هايدن) بسرعة ، وهتف (ماهر) فى توتر عنيف :

ـ ماذا يحدث ؟! .. ماذا ستفعلون بى ؟

ابتسم (عرفان) ، وهو يقول له بالعربية :

ـ اطمئن يا ولدى .. إننا نحاول مساعدتك فحسب .

هتف (ماهر) :

ـ أأنت (مصرى) ؟!

أومأ (عرفان) برأسه إيجابًا ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ وأسعى لإخراجك من هذا الموقف .

حدّق (ماهر) فى وجهه لحظة ، ثم أدار عينيه بين وجهيهما ، وقال فى حيرة مذعورة :

ـ ماذا يحدث بالضبط ؟! .. كيف يمكنكما مساعدتى على الخروج من هذا ؟! .. وماذا تقصدان بقولكما بأنكما ستعيدانى من حيث أتيت ؟! .. هل سنعود إلى ذلك المركز فى (نيويورك) ؟!

أجابه الدكتور (هايدن) ، وهو ينطلق نحو مطار خاص صغير ، بالقرب من (ناسا) :

ـ لا .. لن نعود إلى هناك .. لقد أجرى الدكتور (عرفان) حساباته ، وحدّد النقطة المطلوبة ، وسيحتاج الوصول إليها إلى ساعة وعشر دقائق من الطيران ، وكل ما نسعى إليه هو أن نبلغها فى الوقت المناسب ، وإلا فستضيع فرصة عودتك إلى الأبد .

اتسعت عينا (ماهر) فى ارتياع ، وهو يردّد :

ـ ماذا يعنى هذا ؟! .. ما الذى يعنيه باللّه عليكما ؟!

اندفع (هايدن) بالسيارة داخل المطار الخاص ، وتوقّف إلى جوار طائرة صغيرة ، وهو يقول فى انفعال :

ـ سنشرح لك كل شىء بالطبع ، ولكن أسرع الآن باللّه عليك ، فليس أمامنا الكثير من الوقت .

غادر (ماهر) السيارة معهما فى توتر ، واستقلّوا الطائرة الخاصة التى بدا وكأنها كانت متأهبة للإقلاع فور وصولهما ، إذ لم تمض دقائق خمس ، حتى كانت تحلّق فى الهواء ، فى طريقها إلى وجهة يجهلها وحده ، ولقد تضاعف توتره ، عندما سمع الدكتور (عرفان) يسأل :

ـ هل تعتقد أنهم لن يكشفوا الأمر ، قبل وصولنا إلى الهدف ؟

أجابه (هايدن) فى توتر ملحوظ :

ـ لقد أستأجرت سيارة أخرى ، وسيحتاج الأمر منهم إلى بعض الوقت لكشف ما فعلناه ، وفى خلال هذا تكون قد بلغنا الهدف .

هتف (ماهر) فى حدة :

ـ ألم يحن الوقت بعد ، لأعلم ما تفعلانه بى ، وإلى أين تحملانى بالضبط ؟!

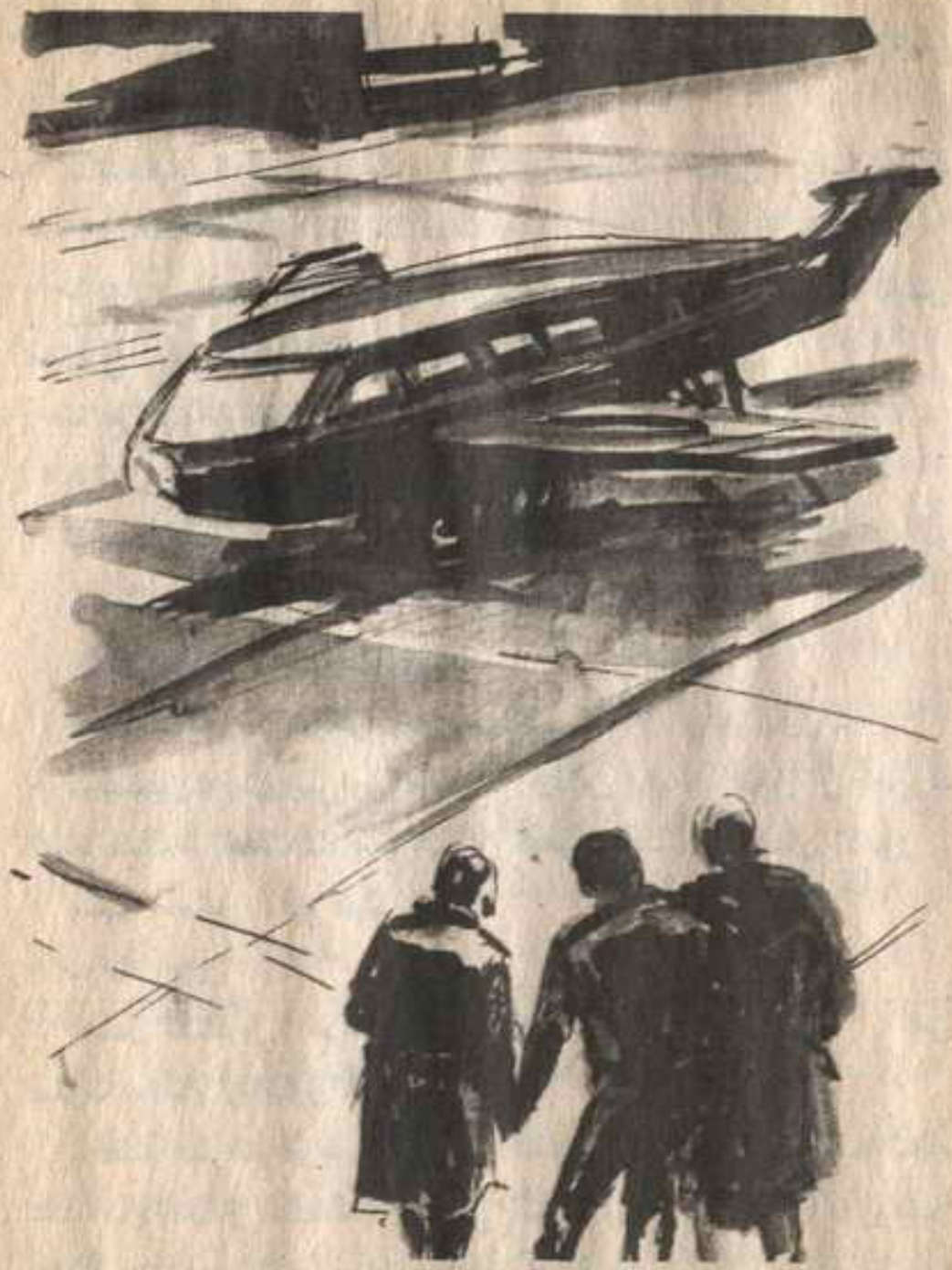

تبادل العالمان نظرة صامتة ، ثم ربّت الدكتور (عرفان) على ركبته ، قائلاً :

ـ بالطبع يا ولدى .. بالطبع .. لقد عانيت الكثير ، ومن حقك الآن أن تجد تفسيرًا لكل ما حدث .

ازدرد (ماهر) لعابه فى صعوبة ، وهو يسأل بصوت أجش مبحوح ، من فرط اللهفة والانفعال :

ـ هل .. هل تعنى أن لديك تفسيرًا لوجودى هنا ؟!

أومأ (عرفان) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع .

تشبّث (ماهر) بسترته ، وهو يهتف :

ـ أخبرنى ما لديك بالله عليك .

تنهّد الدكتور (عرفان) وربّت على كتفه ، وهو يقول :

ـ سأخبرك بكل شىء يا ولدى ، ولكن اهدأ ، فقبل أن أخبرك كيف حدث ما حدث لك ، ينبغى أن أقصّ عليك أوّلاً بعض الأمور .

سأله (ماهر) فى توتر :

ـ أية أمور ؟!

اعتدل الدكتور (عرفان) فى مقعده ، وأزاح يد (ماهر) عن سترته ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ منذ فترات طويلة ، وعبر عشرات السنين ، يواجه العلم عددًا من الألغاز الغامضة ، التى تثير حيرته وارتباكه ، ويعجز معها عن إيجاد تفسيرات منطقية ، تروى لهفته ، أو تشبع فضوله .. ومن هذه الألغاز ، وعلى رأسها بالنسبة لما نحن

بصدده ، حالات الاختفاء والظهور الغامضة ، فبعد ظهر يوم الثالث والعشرين من سبتمبر عام ألف وثمانمائة وثمانين مثلاً ، فى مدينة (جالاتين) بولاية (تنيسى) الأمريكية ، كان القاضى (أوجست بيك) فى طريقه إلى مزرعة صديقه (دافيد لانج) ، لقضاء أمسية دافئة معه ، كعادته فى العديد من الأمسيات ، وعندما اقترب من المزرعة ، رأى زوجة (لانج) وطفليه (جورج) و(سارة) ، مع رفيقة لهما فى شرفة المكان ، يتطلعان إلى (لانج) ، الذى بدا له واضحًا ، وهو يعبر الحقول ، فى طريقه إلى المنزل ولقد لمحه (لانج) ، فلوّح له بيده ، وتقدّمه خطوتين ، و ...

صمت لحظة عند هذه النقطة ، وتطلّع إلى عينى (ماهر) ، قبل أن يضيف :

ـ واختفى .

ارتجف جسد (ماهر) على نحو واضح ، وهو يحدّق فى وجه (عرفان) ، الذى تابع فى اهتمام :

ـ حدث هذا أمام أعين الجميع ، وعلى نحو جعلهم يتصوّرون أن (لانج) قد سقط فى حفرة ما وسط الحقول ، فأطلقت زوجته صرخة فزع ، وانطلق الجميع نحو البقعة التى اختفى فيها ، ولكنها كانت خالية تمامًا من أى أثر ، ولم يجدوا بها أية فجوات ، ولقد أطلقوا جرس الإنذار ، بعد ساعتين كاملتين أعياهم خلالهما البحث عنه ، فخرج القرويون فى منازلهم ، وشاركوا فى عملية البحث عن (دافيد لانج) لخمس ساعات أخرى ، فتشوا خلالها

كل شبر فى المزرعة دون جدوى .. ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل لقد اجتمع عشرات الرجال فى الأيام التالية ، وحفروا الأرض ، بحثًا عن كهوف أو حفر خفية ، ولكن (دافيد لانج) كان قد اختفى تمامًا ، ولم يعثر له أحد على أدنى أثر للأبد .

فغمغم (ماهر) مبهورًا :

ـ رباه ! .. أين ذهب إذن ؟!

تجاهل الدكتور (عرفان) السؤال ، وهو يواصل :

ـ حدث هذا أيضًا فى (الإسكندرية) ، فى السبعينات ، عندما كانت سيّدة تسير إلى جوار زوجها ، ثم اختفت فجأة ، فتصوّر الزوج المذعور أنها سقطت فى حفرة قريبة ، واهتمّت السلطات بالأمر ، وتم تفتيش الحفرة ، وكل شبكات المجارى والصرف فى المدينة ، وحتى الأنفاق القديمة ، التى تخلّفت عن (الإسكندرية) البطلمية ، دون جدوى ، ودون أن يتم العثور على أدنى أثر لها .

تمتم (ماهر) :

ـ هل تشير إلى علاقة هذا بـ ..

قاطعه الدكتور (عرفان) ، وهو يستطرد :

ـ وهذه ليست حوادث الاختفاء الغامضة الوحيدة ، فهناك حادث اختفاء لثلاث فرق صينية كاملة ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، دون أن تترك خلفها أدنى أثر ، وحوادث اختفاء طائرات وسيارات ، وبشر ، لم تنته التحقيقات المكثّفة حولها إلا إلى مزيد من الغموض والحيرة .

تصاعد قلق (ماهر) أكثر وأكثر ، وتراجع فى مقعده ، وهو يتطلّع إلى الدكتور (عرفان) فى صمت ، فى حين التقط الشيخ أنفاسه ، وخلع منظاره الطبى ، ومسحه بمنديله ، ثم عاد يرتديه ، قائلاً :

ـ والأمر لا يقتصر فى هذه الحوادث الغامضة على الاختفاء ، وإنما يمتد ، كما فى حالتك ، إلى حوادث ظهور مفاجئ غير مفسَّرة ، ولعل أشهرها حادثة وقعت ذات يوم مشرق ، من أيام أكتوبر ، عام ألف وخمسمائة وثلاثة وتسعين ، فوسط زحام السوق فى مدينة (مكسيكوسيتى) ، كان المارة يختلطون بالجنود ، أصحاب الزى المميّز ، ثم لاحظ الجميع وجود جندى حائر مرتبك ، يرتدى زيًا لا يشبه أزياء الجنود التقليدية كما أنه يحمل سلاحًا يختلف تمامًا عن أسلحتهم ، وعندما اتجه إليه الجنود ، وحاصروه بأسلحتهم ، أجابهم فى اضطراب أنه خرج فى الصباح لتنفيذ أمر بحراسة قصر الحاكم فى (ماتيلا) ، حيث يعمل ، ثم أخبرهم أنه حائر بشدة ، وأنه واثق من أن هذا ليس قصر الحاكم ، وأنه ليس فى (ماتيلا) ، ولكنه سيؤدى واجبه بقدر استطاعته ، خاصة وأن الحاكم قد قُتِلَ ليلة أمس .. ولقد كانت صدمة عنيفة لذلك الجندى بالتأكيد ، عندما علم أنه على بعد آلاف الكيلو مترات من (ماتيلا) ، ورفض تصديق هذا تمامًا ، كما رفض الآخرون تصديق قصته ، والاقتناع بأنه قطع المسافة من (ماتيلا) إلى (مكسيكو سيتى) فى ليلة وضحاها ، وتم إلقاؤه من السجن ، باعتباره جاسوسًا ..

شحب وجه (ماهر) ، عند هذا الجزء ، وتمتم:

ـ رباه ! .. هذه القصة تشبه ما حدث لى !

وافقه الدكتور (عرفان) بإيماءة من رأسه ، وهو يتابع :

ـ وبعد شهرين من وضعه فى السجن ، وصلت سفينة من (الفلبين) تحمل خبر مقتل الحاكم ، فى نفس الليلة التى ذكرها الجندى ، مما جعلهم يطلقون سراحه ، وإن لم يستطع مخلوق واحد ، عبر أربعمائة تفسير رحلته العجيبة هذه ، عبر الزمان والمكان .

اتسعت عينا (ماهر) فى ذعر ، وغمغم :

ـ ولكنك تملك التفسير .. أليس كذلك ؟! .. قل لى إن لديك تفسيرًا لكل هذا .. قل لى بالله عليك .

ربت الدكتور (عرفان) على كتفه مهدئًا ، وهو يقول :

ـ بالطبع يا ولدى .. بالطبع .. وما لدى لا يكتفى بتفسير حالتك فحسب ، وإنما يفسر أيضًا كل حالات الأمطار العجيبة ، التى سجلتها مراجع الألغاز الغامضة .

سأله (ماهر) مبهوتًا :

ـ أية أمطار ؟!

تنحنح الدكتور (عرفان) ، وبدا وكأن الحديث المتواصل قد أرهقه ، وهو يشير إلى الدكتور (هايدن) ، الذى اعتدل فى مقعده ، والتفت إلى (ماهر) ، قائلاً .

ـ هذه أكثر الحوادث شيوعًا ، على الرغم من غرابتها يا فتى ، فعبر التاريخ المكتوب ، شهدت مواقع مختلفة فى العالم أمطارًا

عجيبة ، لا تحمل قطرات المطر وحدها ، وإنما تسقط معها طيور ، أو أسماك ، أو ضفادع ، أو حتى تماسيح وثمار .

اتسعت عينا (ماهر) فى دهشة بالغة ، لم يتوقف عندها الدكتور (هايدن) ، الذى تابع فى اهتمام :

ـ ففى منتصف أكتوبر ، من عام ألف وثمانمائة وستة وأربعين ، هطلت على بعض أجزاء (فرنسا) أمطار حمراء ، تساقطت معها بكثافة آلوف الطيور الممزقة والملوثة ، من مختلف الأنواع ، وكان سبب موت معظمها هو ارتطامها بالأرض عند السقوط ، ولم يفهم شخص واحد سر هذه الظاهرة ، التى تكررت مرة ثانية فى يوليو ، عام ألف وثمانمائة وستة وتسعين ، أو بعد نصف القرن تقريبًا ، ولكن بدون الأمطار ، فقد تساقطت عشرات الطيور الميتة على مدينة (باتون روج) ، بولاية (لويزيانا) ، من بينها نقار الخشب ، والشحرور ، والبط البرى ، وغيرها ، والأعجب أن بعض الأنواع كان يندر وجودها فى المنطقة ، وبعضها أنواع غير معروفة على الإطلاق .. ثم حدث هذا مرة ثالثة فى أغسطس عام ألف وتسعمائة وستين ، فى مدينة (كابيتولا) بولاية (كاليفورنيا) ، حيث استيقظ السكان فى الصباح ليفاجئوا بأن الطيور الميتة تغطى مدينتهم كلها ، والغريب أنها كانت من النوارس المائية ، التى تتخذ أعشاشها فى المعتاد فى القارة الاسترالية ، والشاطئ اليابانى .. والأمر ليس قاصرًا على الطيور فحسب ، ففى (دلاس) الأمريكية هطلت أمطار من الأسماك فى الثامن عشر من يونيو ، عام ألف وتسعمائة وثمانية

وخمسين ، وكلها من نوع واحد ، يتراوح طولها بين ثلاث وأربع بوصات ، ولونها رمادى داكن تتخلله بقع حمراء مذهبة ، وذيلها أحمر .

وفى الثانى عشر من يوليو ، عام ألف وتسعمائة وواحد وستين ، تساقطت من السماء ثمار الخوخ ، على مبنى بشارع (الوفر) فى مدينة (شريفبورت) ، وفى عام ألف وثمانمائة وثمانين ، تساقطت أحجار مختلفة الأحجام على مدينة (أوزارك) فى (أركانساس) ، وقبل هذا بعشر سنوات ، وفى شهر أغسطس ، أمطرت السماء مئات من سحالى الماء على مدينة (سكرامتو) ، طوال الواحدة منها ما بين بوصتين وثمانى بوصات ، أما أغرب حالات الأمطار العجيبة ، فهى سقوط تمساح من نوع (اليجينور) ، يزن حوالى ستين رطلاً ، فى حديقة منزل فى (لونج بيتش) ، عام ألف وتسعمائة وستين ، ولم تكن المنطقة كلها بجفافها تصلح لعيش مثل هذا النوع من التماسيح ، مما أثار حيرة ودهشة الجميع لسنوات وسنوات ، دون أن يصل أحد إلى تفسير منطقى لمثل هذه الأمور (*) .

كان توتر (ماهر) قد بلغ ذروته ، فقال فى عصبية شديدة :

(*) كل الوقائع ، التى ذكرت على لسان الدكتور (عرفان) والدكتور (هايدن) ، حقيقية ، ومسجلة فى أكثر من مرجع علمى ، وموسوعة علمية جادة .

ـ ولكن الدكتور (عرفان) يملك تفسيرًا .. أليس هذا ما تريد قوله ؟! .. هناك تفسير .. أليس كذلك ؟!

تبادل الرجلان نظرة صامتة قلقة ، فهتف بكل انفعاله :

ـ أريد معرفة ذلك التفسير .. هذا حقى .. أريد معرفته دون مقدمات ، أو روايات أخرى معقدة .. أريد معرفة ذلك التفسير مباشرة .. أريد معرفة الحقيقة .

تبادلا نظرة أخرى ، قبل أن يغمغم الدكتور (عرفان) :

ـ بالطبع يا ولدى .. هذا حقك .

ثم تطلع إلى عينى (ماهر) مباشرة ، وقال فى حزم :

ـ الحقيقة هى أنك لا تنتمى إلى هذا العالم يا ولدى .. لا تنتمى إليه على الإطلاق ..

وفى هذه المرة ، كانت انتفاضة (ماهر) عنيفة .. عنيفة إلى أقصى حد .

* * *

٦ ـ تحدّى المستحيل ..

اتسعت عينا الوسيم فى ذهول ، وكاد يثب من مكانه ، وهو يحدّق فى تقرير مقارنة البصمات ، ويهتف :

ـ مستحيل ! .. هناك خطأ ما حتمًا .. مستحيل !

سأله الضخم فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه فى انفعال جارف ، وهو يلوّح بالتقرير :

ـ هؤلاء الأغبياء يقولون : إن البصمات متطابقة تمامًا ، وإنها للشخص نفسه ، وهذا مستحيل ، المفترض أنهم يقارنون بصمات الشاب الذى لدينا ، بتلك التى وصلتنا بالفاكس من (القاهرة) .. وهذا مستحيل !! .. لا يمكن أن يتواجد شخص ما فى مكانين فى آن واحد .. مستحيل ! .. مستحيل !

بُهت الضخم للقول ، وظلّ يحدّق فى وجه زميله بضع لحظات ، قبل أن يقول فى تردُّد متوتّر :

ـ ربما هناك خدعة فى الأمر .. ربما أبدلوا صحيفة ذلك الذى فى (القاهرة) بأخرى ، تحمل بصمات الذى لدينا هنا ، و ...

قاطعه الوسيم فى عصبية :

ـ لم يحدث هذا يا (سميثى) .. البصمات تم الحصول عليها من صاحبيها مباشرة ، هنا وهناك .

تراجع الضخم فى حدة ، هاتفًا :

ـ ولكن هذا مستحيل ! .. لقد علمونا أن البصمات لا تتطابق قط ، حتى بالنسبة للتوائم المتماثلة (*)

انعقد حاجبا الوسيم فى شدة ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ هناك تفسير لهذا .. هناك تفسير حتمًا .

ثم اندفع خارج الحجرة ، فلحق به الضخم ، هاتفًا :

ـ إلى أين ؟!

أجابه الوسيم فى حدة :

ـ سأنتزع ذلك الشاب فى فراشه ، وأجبره على قول الحقيقة ، حتى ولو اضطررت لتحطيم رأسه من أجل هذا .

هتف الضخم:

ـ ولكن الأوامر تحتم أن ..

قاطعه فى غضب ثائر :

ـ فلتذهب الأوامر إلى الجحيم .. المهم هو الحقيقة .. الحقيقة وحدها .

جرى الضخم خلفه ، عبر الممرات المتشابكة ، حتى بلغا حجرة (ماهر) ، وأشار الوسيم إلى الجندى الواقف أمامها ، قائلاً فى حدة :

ـ أفسح الطريق يا رجل .. سأنتزع هذا الشاب من فراشه ، و ...

تنحنح الجندى فى ارتباك ، وهو يؤدى التحية ، قائلاً :

ـ معذرة يا سيّدى ، ولكن الشاب ليس هنا .

(*) حقيقة علمية .

توقّف الوسيم ، وهتف فى سخط :

ـ ليس هنا ؟! .. ماذا تعنى بأنه ليس هنا ؟! .. المفترض أن عملك هو أن تمنعه من الخروج .

تنحنح الجندى ثانية ، وقال :

ـ ولكن القواعد تحتّم علىّ طاعة المسئولين فى (ناسا) بالدرجة الأولى ، وعندما حضر الدكتور (هايدن) وزميله لاصطحاب الشاب ، لم يكن بمقدورى منعهما.

انعقد حاجبا الوسيم ، وهو يقول :

ـ الدكتور (هايدن) وزميله ؟! .. من زميله هذا ؟!

هزّ الجندى رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ لست أدرى .. لم أره قط ، منذ تسلّمت عملى هنا .

ازداد انعقاد حاجبى الوسيم ، والتفت إلى الضخم ، قائلاً فى عصبية :

ـ لست أشعر بالارتياح لهذا الأمر .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ اقلب (ناسا) كلها ، بحثًا عن الدكتور (هايدن) ، وزميله الغامض هذا، وسل عن تلك الاختبارات العجيبة ، التى تجرى بعد منتصف الليل ، وسأستجوب هذا الجندى المهمل ، لمعرفة كل التفاصيل ..

ثم اطلّ غضب الدنيا كله فى عينيه ، وهو يضيف :

ـ وأتعشّم أن تكون هناك اختبارات حقيقية ، وإلا فأقسم بأرواح أجدادى أن أجعل من هذه الليلة كابوسًا فى حياة (هايدن) وزميله .. بل سأجعلها أبشع كوابيسهما .. أبشعها على الإطلاق ..

* * *

انكمش (ماهر) فى مقعده ، وحملت عيناه أبشع نظرة ارتياع فى الدنيا ، وهو يحدّق فى الدكتور (عرفان) ، الذى هزّ رأسه فى أسف ، مغمغمًا :

ـ أعلم أنه ليس من السهل عليك أن تتقبّل الفكرة يا ولدى ، ولكن ..

قاطعه (ماهر) بصوت مختنق مبحوح :

ـ ماذا تعنى بأننى لا أنتمى إلى هذا العالم ؟!

ثم اعتدل فى مجلسه بغتة ، وعلا صوته فى حدة ، مكرّرًا :

ـ ماذا تعنى بأننى لا أنتمى إليه ؟!

وشملته نوبة من الغضب ، جعلته يلوّح بذراعيه ، ويتقافز فى مكانه ، هاتفًا :

ـ ربما لا أنتمى إلى دولتكما .. أو إلى قارتكما ، ولكننى مصرى .. مصرى من (القاهرة) .. ومن حى (شبرا) بالتحديد .. ألا تنتمى (مصر) بكل أحيائها إلى هذا العالم ؟!

تبادل الرجلان نظرة قلقة ، وتمتم (هايدن) :

ـ كنت أعلم أن الأمر لن يمضى فى يسر .

أما (عرفان) فأجاب :

ـ ليس لدينا أدنى شك يا ولدى ، فى أنك تنتمى إلى (مصر) ، ولكن المشكلة أن (مصر) التى تنتمى إليها ، ليست نفسها (مصر) التى نعرفها فى عالمنا .

ـ صحيح أن للاثنتين تاريخ واحد ، وحضارة متماثلة ، وفى كل منهما نفس المدن ، والأحياء ، والأشخاص ، وحتى الحيوانات ،

والحشرات ، ولكن كلاً منهما فى عالم يختلف تمامًا عن العالم الذى تحتلّه الأخرى .. عالم نطلق عليه نظريًا اسم العالم الموازى .

اتسعت عينا (ماهر) وهو يتمتم :

ـ العالم الموازى .. ما معنى هذا المصطلح .. أنا لم أسمع به قط ، طوال دراستى فى كلية العلوم .

ابتسم (عرفان) ، وقال :

ـ هذا أمر طبيعى يا ولدى ، فنظرية العوالم المتوازية ليست بالنظرية البسيطة ، التى يمكن تدريسها لطلاّب كلية العلوم .. إنها نظرية بالغة التعقيد ، تعود إلى أيام وضع (ماكس بلانك) لنظرية (الكم) ، عندما قادته معادلاته إلى حتمية وجود عوالم أخرى ، قد لا يكتفى بعضها بالأبعاد الثلاثة المعروفة ، ولا حتى بالبُعد الزمنى الرابع ، وإنما يحتم عليها وجودها أن تعتمد على أبعاد خمسة ، أو ستة ، أو ربما أكثر(*) .

هزّ (ماهر) رأسه ، قائلاً :

ـ لست أفهم .

أومأ (عرفان) برأسه متفهمًا ، وقال :

(*) ماكس بلانك = (١٨٥٨ ــ ١٩٤٧) ، فيزيقى ألمانى ، اشتغل بدراسة الديناميكية الحرارية لفترة طويلة ، ثم وضع نظرية (الكم) ، التى نال عنها جائزة (نوبل) فى الفيزيقا عام ١٩١٨ ، ١٩٣٦ ومن أهم مؤلفاته (فلسفة علم الفيزيقا) و(الديناميكية الحرارية) عام ١٩٤٥ م .

ـ فليكن .. دعنى أحاول تبسيط الأمر أكثر .. نظريتى تقول : إننا لا نحيا وحدنا فى الفراغ الذى يحتلّه كوكبنا ، وإنما تحتل الفراغ نفسه عدة عوالم متوازية ، قدّر عددها بسبعة عوالم ، طبقًا لدراسات طويلة ، وكل عالم من هذه العوالم لا يشعر بوجود العوالم الستة الأخرى ، لأنها تختلف عنه فى الذبذبة والارتجاج ، ودرجة الوصول إلى الحالة المادية .. وفى كثير من الأحيان ، يلتقى عالمان أو أكثر من هذه العوالم المتوازية ، فى نقاط تماسّ محدودة ، يختلف موقعها من عالم إلى آخر ، ومن وقت إلى آخر ، وعند نقاط التماس هذه ، تحدث فجوة بين العوالم المتوازية ، وعبر هذه الفجوة ، يمكن أن ينتقل جسم ما ، من أحد العوالم إلى الآخر ، لو تصادف وجوده فى نقطة التماس ، فى لحظة حدوثه ، التى لا تستغرق فى المعتاد أكثر من ثوان معدودة للغاية .. وعبر إحدى تلك الفجوات اختفى (دافيد لانج) ، وسقط فى عالم مواز ، ولم يستطع العودة منه قط ، وكذلك حدث لسيّدة (الإسكندرية) ، ولفرق الجنود الصينية ، وعبر فجوات أخرى سقط جندى (مانيلا) إلى عالمنا ، وجاءت نقطة التماس بالنسبة لعالمنا فى (مكسيكو سيتى) ، وكذلك فى حالات الأمطار العجيبة ، إذ تكون نقطة التماس لعالمنا فى السماء ، فى حين قد تلتقى فى العالم الموازى بسماء أيضًا ، فتسقط طيور صريعة ، أو فى بحر ، أو نهر ، أو مستنقع ، ومن هنا تتساقط إلى عالمنا الأسماك والضفادع والتماسيح ، أو تلتقى بجبل أو مزرعة ، أو أى شىء آخر ..

ثم تطلّع إلى عينى (ماهر) مباشرة ، وقال :

ـ ولكن فى حالتك أنت ، كنت محظوظًا إلى حد كبير .

اتسعت عينا (ماهر) فى استنكار ، وهتف :

ـ محظوظ ؟! .. أنا ؟! ..

أشار (عرفان) بيده ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. لقد حدث التماس بين عالمك وعالمنا بعد دقائق معدودة من دخولك إلى الفراش ، واستغراقك السريع فى النوم ، بعد كل ما تبذله من جهد للبحث عن عمل طوال النهار ، وكانت نقطة التماس بالنسبة لعالمك هى المنطقة التى يحتلّها جسدك فوق الفراش ، أما فى عالمنا فكانت سطح مركز التجارة العالمى .. ماذا كان يمكن أن يحدث فى رأيك ، لو أن نقطة التماس فى عالمنا كانت نقطة عارية فى السماء ، على الارتفاع نفسه ؟!

ارتجف جسد (ماهر) فى ارتياع ، وتخيّل نفسه يهوى فى الفراغ ، من هذا الارتفاع الشاهق ، فشحب جسده ، وعاد ينكمش فى مقعده ، ويتمتم :

ـ كانت ستحدث كارثة .

أشار إليه (عرفان) بسبّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .. ألم أقل لك : إنك محظوظ ؟!

ران على ثلاثتهم صمت رهيب ، استغرق ما يقرب من دقيقتين كاملتين ، قبل أن يرفع (ماهر) إلى الرجلين عينين مغرورقتين بالدموع ، ويغمغم :

ـ ربما كنت محظوظًا عند وصولى إلى عالمكما ، ولكن ماذا عن مصيرى فيه ؟! .. المنطق والشواهد تقول : إننى سألقى حتفى فيه حتمًا ..

تبادل (هايدن) و(عرفان) نظرة سريعة ، قبل أن يقول الأخير :

ـ ربما لا يحدث هذا .

ثم اعتدل فى مقعده ، مستطردًا :

ـ لو نجحنا فى إعادتك إلى عالمك .

اتسعت عينا (ماهر) مرة أخرى ، قائلاً :

ـ أهذا ممكن ؟! .. أهذا ممكن بالله عليك .. هل ..

بتر عبارته بغتة ، وجحظت عيناه فى شدة ، وانطلقت فى حلقه صرخة ألم ، فى نفس اللحظة التى تراقصت فيها على جسده شرارات كهربية مضيئة ..

وفى ارتياع ، هتف (هايدن) :

ـ لا .. ليس ثانية .

أما (عرفان) ، فقد أطلّ الذعر من عينيه ، وغمغم :

ـ رباه ! .. الطائرة ..

وفى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كانت كل

مؤشرات الطائرة تتوقف بغتة ، والطيّار يفقد سيطرته عليها .. تمامًا ..

* * *

كادت أصابع الوسيم تعتصر سمّاعة الهاتف ، من شدة الغضب والانفعال ، وهو يتحدّث مع رئيسه ، قائلاً :

ـ خدعنا يا سيّدى .. ذلك العالم المأفون خدعنا .. لقد هرب مع الشاب منذ نصف الساعة تقريبًا ، بمعاونة شيخ خبيث ، تؤكّد كل الظواهر أنه عالم متقاعد أيضًا .

وصمت لحظة ، ليستمع إلى رئيسه ، ثم قال فى توتر شديد :

ـ أقسم لك إن هذا ليس تقصيرًا منا يا سيّدى .. لقد بذلنا أنا و(سميثى) قصارى جهدنا ، ولكن الجندى الأحمق أطاع ذلك العالم ، وسمح له بإخراج الشاب .. بالطبع يا سيّدى .. بالطبع .. لقد قمنا بتحريات سريعة ومكثّفة للغاية ، وتوصّلنا إلى أن (هايدن) لم يستقلّ سيارته ، وإنما انطلق بسيارة مستأجرة ، عثرنا عليها عند مطار خاص قريب ، وهذا يعنى أنه استأجر طائرة ، لتنقله إلى وجهة ما ، نبذل قصارى جهدنا للتوصّل إليها.

صمت برهة أخرى ، ليستمع إلى عبارات رئيسه الغاضبة ، ثم قال :

ـ نعم .. لقد طلبت إحضار واحدة من طائراتنا (السوبر ماستير) ، ذات السرعات الفائقة ، للحاق بطائرتهم ، فور تحديد وجهتها .. بالتأكيد يا سيّدى .. بالتأكيد .. لن أسمح لهم بالفرار قط ، مهما كان الثمن .

وأنهى المحادثة ، وهو يكاد يشتعل غضبًا وثورة ، وعضّ شفتيه غيظًا ، مغمغمًا :

ـ اللعنة ! .. أقسم ألا يفوز ذلك اللعين بغنيمته ، مهما كان الثمن .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يدير الأمر فى رأسه بضع لحظات ، قبل أن تتألّق عيناه ببريق شرس ، ويغمغم :

ـ نعم .. لن يظفر بغنيمته قط .

لم يكد يتمّ قوله ، حتى اندفع الضخم إلى الحجرة ، ولهث فى انفعال ، هاتفًا :

ـ الطائرة فى طريقها إلى جزر (بهاما) .. لقد حددنا خط سيرها بالضبط ، و (السوبر ماستير) تنتظر للانطلاق بنا خلفها .. هيا أسرع ، حتى يمكننا اللحاق بها .

انعقد حاجبا الوسيم فى شدة ، وهو يقول :

ـ مهلاً .. هناك خطوة ينبغى اتخاذها أوّلاً .

والتقط سمّاعة الهاتف ، وأدار رقم القاعدة الجوية الحربية فى (ميامى) ، وقدّم نفسه لقائدها ، وأخبره بالكود السرى الخاص باتصالات الطوارئ القصوى ، قبل أن يقول :

ـ اسمعنى جيدًا يا جنرال .. هذا أمر خاص بأمن الدولة ، ولا وقت فيه للشرح والتفسير .. هناك طائرة تنطلق الآن نحو جزر (بهاما) ، وهذه الطائرة تحمل ما يهدّد أمن (أمريكا) كلها بالخطر .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ حسن .. هذه الطائرة ينبغى إسقاطها .. وبأى ثمن .

قالها ، وعيناه تتألقان ببريق مخيف ..

ووحشى ..

* * *

انتفض جسد الدكتور (هايدن) فى عنف ، عندما فقدت الطائرة توازنها ، ومالت على نحو مخيف ، وصاح فى ارتياع :

ـ الطائرة تسقط يا دكتور (عرفان) .. تسقط فى المحيط .

وثب الدكتور (عرفان) فى رشاقة مدهشة ، لا تتناسب قط مع سنوات عمره ، التى تجاوزت السبعين ، واختطف حقيبة كبيرة ، يحتفظ بها فى حرص منذ البداية ، وهو يقول :

ـ هذا أمر طبيعى ، فالشاب يعانى نوبة أخرى ، من نوبات تعارض الأقطاب ، وهذا سيخلق حوله مجالاً كهرومغنطيسيًا عنيفًا ، يكفى لإفساد عمل كل مؤشرات الطائرة مؤقتًا .

ثم فتح حقيبته ، والتقط منها جهازًا أشبه بجهاز الصدمات الكهربية القلبية ، مستطردًا :

ـ ولكننى كنت أتوقع حدوث هذا .

وألصق طرفى الجهاز بجسد (ماهر) ، ثم ضغط أحد أزراره ، فصدرت فرقعة قوية ، وانتفض جسد (ماهر) فى عنف ، قبل أن تتلاشى كل الشرارات المحيطة به دفعة واحدة ، والدكتور (عرفان) يضيف فى حزم :

ـ وأستعد لمواجهته .

هدأ جسد (ماهر) على الفور ، وعادت مؤشرات الطائرة

للعمل ، واستعاد الطيّار الماهر سيطرته عليها فى اللحظة الأخيرة ، وعاد يرتفع بها ، عائدًا إلى مساره ، وزفر الدكتور (هايدن) فى ارتياح ، مغمغمًا :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .. خُيّل إلىّ أنها نهايتنا .

أما (ماهر) ، فقد تصبّب عرق غزير على وجهه ، وهو يتطلّع إلى الدكتور (عرفان) بعينين متهالكتين ، مغمغمًا فى ألم وضعف :

ـ ماذا يحدث لى ؟!

ربّت الدكتور (عرفان) على كتفه ، قائلاً :

ـ إنه رد فعل طبيعى لخلاياك يا ولدى ، فهى تتواجد فعليًا فى عالم تختلف ذبذباته تمامًا عن ذبذباتها المألوفة ، ومن حقها أن تعلن تمرّدها وألمها من حين إلى آخر .

بدا الألم فى عينى (ماهر) ، وهو يتمتم :

ـ أمازلت تصرّ على قصة العالم البديل هذه ؟

ابتسم (عرفان) فى حنان ، وهو يقول :

ـ هذا ليس سبة تخجل منها يا ولدى .. الله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم أى عالم من هذه العوالم هو العالم الأصلى ، وأيها البديل .. ومن يدرى .. ربما كان عالمك أفضل من عالمنا ، ولكن هذا لن يصنع فارقًا ، فالمهم فى النهاية هو أنك لا تنتمى لعالمنا .. وهذا يفسر كل الغموض المحيط بك .. ظهورك المباغت .. المنحنيات المعكوسة ، التى تصنعها الأجهزة ، عند قياس جسدك .. ضرورة عكس أقطاب الأجهزة عند فحصك .. نوبة التقاطب التى

تصيبك .. كل هذا لأن ذبذبة جسدك تختلف تمامًا من ذبذبة أجسادنا ، مما يربك كل الأجهزة الإلكترونية ، التى تتعامل معها .

أومأ (ماهر) برأسه متفهمًا فى مرارة ، ثم أغلق عينيه ، متمتمًا :

ـ قلت : إنه هناك وسيلة للعودة .

أجابه (عرفان) :

ـ هذا صحيح .

ثم تابع فى اهتمام شديد :

منذ أكثر من نصف القرن ، ولاهم لى سوى دراسة حوادث الاختفاء والظهور الغامضة ، ومراجعة كل المعلومات الخاصة بها ، مهما بلغت دقتها وبساطتها ، ومهما بدت للآخرين تافهة عديمة القيمة .. وكان من الطبيعى ، بعد كل هذا الجهد ، وبعد اختراع وانتشار أجهزة الكمبيوتر المنزلية ، بكل ما تحويه من ذاكرة مدهشة ، وقدرات فذة على إجراء العمليات الحسابية شديدة التعقيد ، أن أتوصل إلى مالم يتوصل إليه الآخرون فى هذا الشأن .

وتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه ، قبل أن يقول :

ـ كل نقطة تماس تظهر فى عالمنا مرتين .. هذا أكثر ما توصلت إليه أهمية ، بعد أبحاث نصف قرن ، خاصة وأننى أستطيع أيضًا تحديد موقع التماس الثانى بدقة ، مادامت لدى معلومات كافية عن التماس الأول .

ثم مال نحو (ماهر) ، مستطردًا بابتسامة ارتياح كبيرة :

ـ وهذا ما حدث لأول مرة بالنسبة لحالتك .

بدأ (ماهر) يتعافى فى بطء ، فاعتدل مغمغمًا :

ـ كيف ؟!

أشار الدكتور (عرفان) بيده ، قائلاً :

ـ إننا نعرف موقع التماس الأول بمنتهى الدقة ، فهو سطح مركز التجارة العالمى ، حيث عثروا عليك ، أما موعده ، فلدينا تقدير مناسب للغاية له ، إذ إن الوقت ما بين دخولك إلى فراشك ، واستيقاظك على سطح المبنى ، لا يتجاوز ست عشرة دقيقة وسبع ثوان ، ولقد استثنينا الدقائق الخمس الأولى ، باعتبار أنك لن تغرق فى النوم فور رقادك ، والدقائق الخمس الأخيرة ، لأنك قلت : إنك لم تستيقظ مباشرة ، وهذا يعنى أنه تبقت لنا ست دقائق فحسب ، وهذا تقدير أفضل من المنتظر ، بالنسبة للوقت .

سأله (ماهر) فى أهتمام قلق :

ـ هل تعنى أنك نجحت فى تحديد موقع التماس الثانى بالفعل ؟

أومأ (عرفان) برأسه مبتسمًا ، وألقى نظرة على ساعته ، قائلاً :

ـ هذا صحيح يا ولدى .. ونحن نتجه إليه الآن ، وسنصل بعد خمس دقائق ونصف بالتحديد ، وسيكون أمامنا ثلاث دقائق كاملة ، قبل أن تنتهى حالة التماس ، وأظنها تكفى لإعادتك إلى عالمك ، لو وصلنا فى الوقت المناسب .

بدت اللهفة على وجه (ماهر) ، وهو يقول :

ـ وكيف سيبدو ظهورى هناك .

ابتسم (هايدن) ، وأجاب هذه المرة :

– أراهن على أنها ستصبح حالة جديدة ، من حالات الاختفاء والظهور الغامضة فى عالمك .

أومأ (عرفان) برأسه إيجابًا ، وقال :

– بالتأكيد .. وهذا هو الاختلاف المؤكّد بين عالمينا ، فحالات الاختفاء عندكم ، ستصبح حالات ظهور لدينا ، والعكس بالعكس .. ففى عالمنا مثلاً لم يختف (ماهر المصرى) ، بل هو هنا .. نسخة طبق الأصل منك ، بنفس تاريخك وملامحك وحتى بصماتك ، وربما تصيبه الدهشة الآن ، لسفره المباغت غير المفهوم إلى (أمريكا) ، بناء على طلب سفارتها فى (القاهرة) ، أما فى عالمك فقد دخل (ماهر) إلى فراشه ، ثم اختفى ، وسيعود إلى الظهور ، فى فراشه أيضًا ، وعلى نحو مباغت .. إنها ستصبح ظاهرة مدهشة فى عالمك ، ولكننى أحسد العلماء هناك ، لأنك ستحمل إليهم تفسيرًا ودليلاً يفتقر عالمنا إليه .

غمغم (ماهر) :

– هذا لو صدّق أحدهم قصتى .

هزّ (عرفان) كتفيه ، وقال :

– سيضطر بعضهم لتصديقها حتمًا ، فمن المؤكّد أن أسرتك تكاد تجن الآن ، بعد اختفائك الغامض طوال هذه الفترة ، وعندما تعود على نحو مباغت ، سوف ..

قاطعه صوت الطيّار ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول فى توتر شديد :

– معذرة أيها السادة ، ولكن هناك طائرتى (فانتوم) تحلقان إلى جوراتا ، وجهاز اللاسلكى تلقّى أمرًا بالعودة إلى (فلوريدا) .

انعقد حاجبا (عرفان) و (هايدن) فى شدة ، وهتف (ماهر) :

– رباه !.. كان ينبغى أن أعلم أن الحلم أجمل من أن يتحقّق .

وقال (عرفان) فى توتر :

– مستحيل !.. لا يمكننا أن نضيع دقيقة واحدة .. التماس لن يستمر لأكثر من ثلاث دقائق .

وتبادل نظرة عصبية مع الدكتور (هايدن) ، قبل أن يغمغم هذا الأخير :

– يبدو أنه لا مفرّ من القيام بالخطوة ، التى كنا نخشاها .

قالها ، واتجه فى خطوات عصبية نحو كابينة القيادة ، والطيار يقول :

– معذرة مرة أخرى أيها السادة .. لايمكننى مقاومة مقاتلتين (فانتوم) .. أنا مضطر للعودة ، و ...

اقتحم (هايدن) كابينة القيادة فى تلك اللحظة ، وانتزع من جيبه مسدسًا ، ألصقه برأس الطيّار ، قائلاً فى صرامة :

– لن نعود يا رجل ، واصل سيرك إلى الهدف .

ارتفع حاجبا الطيّار فى دهشة ، وهتف :

– هل جننت يا رجل ؟.. ألا تدرك ما تعنيه مقاومة أوامر مقاتلتين من طراز (فانتوم) ؟!.. ألا تدرك ما يمكنهما فعله ؟!

أجابه (هايدن) فى صرامة أكثر :

ـ امض فى طريقك .

عقد الطيّار حاجبيه فى توتر شديد ، ثم التقط بوق جهاز اللاسلكى ، وقال :

ـ من الطائرة (ج ـ ١٠) إلى الفانتوم .. لا يمكننى طاعة الأوامر .. الطائرة مختطفة ، وهناك مسدس مصوّب إلى رأسى .. أكرّر .. لايمكننى طاعة الأوامر .

مطّ أحد قائدى (الفانتوم) شفتيه ، عند سماعه هذا النداء ، وغمغم :

ـ لا بأس .. أنت لا تمنحنا خيارًا آخر .

ودار بالمقاتلة دورة شبه كاملة ، وهو يعدّ جهاز إطلاق الصواريخ ، ثم انقض عليها فى شراسة ، و ...

وأطلق أحد صواريخه .

* * *

٧ ـ العالم البديل ..

« هل جننت يا رجل ؟!.. » .

صرخ الرئيس المباشر للوسيم بالجملة ، عبر جهاز اللاسلكى فى (السوبر ماستير) ، فى غضب هادر ، قبل أن يستطرد فى ثورة :

ـ كيف تطلب من الجنرال (لانجلى) إرسال مقاتلتين ؛ لإسقاط الطائرة ، التى تقلّ العالمين والشاب ؟!.. ألا تدرك أنك بهذا الإجراء ، تتجاوز الحد الأقصى لسلطاتك ؟!.. كان ينبغى أن تطلب منى أنا فعل هذا ..

غمغم الوسيم مرتبكًا :

ـ ولكن الموقف لم يكن يحتمل الـ ...

قاطعه فى ثورة :

ـ أى موقف ؟!.. لقد اتصلت بى بالفعل ، قبل أن ننطلق بطائرتنا (السوبر ماستير) خلف طائرتهم ، فلماذا لم تبلغنى بما تنوى فعله .

ارتبك الوسيم أكثر ، وهو يتمتم :

ـ الواقع يا سيّدى أن الفكرة قد ..

عاد رئيسه يقاطعه فى غضب :

ـ الوقع أنك بدأت تعتبر العملية ثأرًا شخصيًا ، بينك وبين الدكتور (هايدن) ، وهذا الموقف عار على من يعملون فى المخابرات المركزية .. ليست لدينا عمليات ثأرية شخصية ..

مصلحة الوطن فوق كل اعتبار .. هل تفهم ؟!.. سأحاسبك حسابًا عسيرًا على موقفك هذا بعد أن ينتهى الأمر .

كظم الوسيم غيظه بصعوبة ، وهو يقول ، ملقيًا نظرة على ساعته :

ـ فليكن يا سيِّدى .. فليكن .. ولكننى أخشى أن الوقت قد فات لهذا الحديث ، فمع فارق السرعة ، بين طائرة خاصة ومقاتلة حربية ، أعتقد أن (الفانتوم) قد انتهت من مهمتها بالفعل ، فى هذه اللحظة .

أجابه رئيسه فى صرامة :

ـ خطأ يا رجل .. إننا نؤمن جيدًا بأن بقاء ذلك الشاب على قيد الحياة ، أكثر فائدة لنا من موته ، لذا فقد طلبت من الجنرال (لانجلى) الاتصال بالمقاتلتين ، وإلغاء أمر التدمير ، والاكتفاء بإجبار الطائرة على العودة ..

قالها ، دون أن يدرى أن المواجهة قد حدثت بالفعل ..

وأنه ربما يكون الوقت قد فات ..

وبلا رجعة

* * *

« العملية ألغيت .. » .

تلقّى طيّار الفانتوم هذا الأمر فى نفس اللحظة ، التى تضغط فيها سبّابته زر إطلاق صاروخه ، عبر جهاز اللاسلكى المتطوّر ، فجذب عجلة القيادة بحركة غريزية ، هاتفًا :

ـ اللعنة !.

لم تغيِّر جذبته مسار طائرته كثيرًا ، ولكنها كانت كافية لينحرف صاروخه ، ويتجاوز الطائرة الصغيرة بمتر واحد ، ليواصل طريقه نحو مياه المحيط ، وينفجر بدوى عنيف ، فصرخ طيّار الطائرة الصغيرة فى عصبية :

ـ أرأيت يا رجل ؟!.. أرأيت ؟! الفانتوم تطلق نحونا صواريخها .

ارتجف الدكتور (هايدن) فى توتر شديد ، بذل قصارى جهده حتى لا يظهر أثره فى صوته ، وهو يقول :

ـ قلت لك : امضِ فى طريقك .

هتف الطيّار :

ـ ماذا دهاك يا رجل ؟!.. لقد أخبرونى أنك عالم محترم من علماء (ناسا) ، ولست أحد خاطفى الطائرات .

صاح به (هايدن) ، بكل ما يملأ كيانه من انفعال :

ـ امضِ فى طريقك يا رجل .. لا يمكننا التراجع .. هل تفهم ؟! ليس لدينا ما يكفى من الوقت للتراجع .

ولم يكد يتم عبارته ،حتى ارتفع صوت قائد (الفانتوم) ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول فى صرامة :

ـ من (الفانتوم) إلى (ج ـ ١٠) .. هذا الصاروخ كان للتحذير فقط .. أكرّر الأمر بالعودة إلى (فلوريد ١) ، وإلا فسيصيب الصاروخ القادم هدفه مباشرة .

قال الطيّار فى عصبية شديدة :

ـ هل سمعت ؟!.. الصاروخ القادم سيصيب هدفه مباشرة .. هل تعلم ما هذا الهدف ؟!.. إنه نحن يا رجل . نحن .

أجابه (هايدن) فى توتر مماثل :

ـ لست أعتقد هذا .. لن يجازفوا بقتلنا ، مادام أمامهم أمل واحد فى استعادتنا أحياء .

قم ألقى نظرة على ساعته ، قبل أن يستطرد بتوتر بلغ ذروته :

ـ واطمئن ؛ فلن يدوم هذا الموقف طويلاً .. لقد بلغنا الموقع المنشود تقريبًا .. هيا .. ارتفع إلى مسافة ألف قدم ، وانطلق نحو الشرق فى خط مستقيم .. هيا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الدكتور (عرفان) يقول لـ (ماهر) فى انفعال :

ـ وصلنا تقريبًا يا ولدى .. استعد ..

ساله (ماهر) فى قلق خائف :

ـ ماذا ينبغى أن أفعل بالضبط ؟

أجابه (عرفان) بسرعة :

ـ ستقفز من الطائرة .

شهق (ماهر) فى قوة ، وحدق فى وجهه ذاهلاً مستنكرًا ، وهو يهتف :

ـ أقفز من الطائرة ؟!.. هل جننت يا رجل ؟!.. هل تطلب منى القفز من الطائرة ، من هذا الارتفاع ؟!

أمسك (عرفان) كتفه فى قوة ، قائلاً فى انفعال :

ـ هذا هو السبيل الوحيد يا ولدى .. نقطة التماس ستظهر بعد سبع وأربعين ثانية ، بمساحة سبعة أمتار فحسب ، على ارتفاع ستمائة قدم من سطح المحيط تقريبًا .. كل حساباتى تؤكد هذا ..

وتؤكد أيضًا أنها فرصتك الوحيدة للعودة إلى عالمك ، ولو تخليت عنها ، ستنتهى حياتك هنا فى عالمنا ، بعد أقل من شهر واحد .. هل تفهم ؟!

وألقى نظرة أخرى على ساعته ، قبل أن يستطرد فى حدة :

ـ هيا يا فتى .. هيا .. الوقت ليس فى صالحنا .. بعد أقل من أربع دقائق ، ستضيع فرصة عودتك إلى عالمك إلى الأبد .. هيا .

قالها ، وجذب باب الطوارئ ، الذى انفتح فى بطء(*) ، فارتطم الهواء البارد بوجهيهما فى عنف ، وحدق (ماهر) فى الباب المفتوح فى ارتياع ، قبل ان يغمغم :

ـ لا .. لن يمكننى هذا قط .

صاح به (عرفان) فى غضب :

ـ بل ستفعلها يا فتى .. إنها فرصتك الوحيدة .

هتف (ماهر) :

ـ وماذا لو كانت حساباتك خاطئة ؟!.. سيعنى هذا أننى سأسقط فى المحيط ، من ارتفاع ثلاثمائة متر تقريبًا ..

هل تعلم ما يمكن أن يحدث عندئذ ؟!

صاح به (عرفان) فى غضب ، والهواء يكاد يدفعه أمامه دفعًا ؟!

(*) فى مثل هذا الارتفاع ، لا يؤدى فتح باب الطوارئ إلى مشكلات جادة ، بالنسبة للضغط والهواء داخل الطائرة ، فأفراد رياضات القفز بالمظلات تحلق بهم طائرات مفتوحة ، على ارتفاع يفوق هذا .

ـ ما الذى يمكن أن يحدث ؟!.. أن تموت ؟!.. وما الفارق بين أن تموت الآن ، أو بعد أسابيع معدودة ، تحيا فيها كفأر تجارب هنا ؟!.. ربما كان الفارق الوحيد هو أنك ستموت ، وأنت تدافع عن بقائك .

اقترب (ماهر) من الباب فى حذر ، وألقى نظرة عبره فى خوف ، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها صوت (هايدن) ، من كابينة القيادة ، وهو يقول عبر جهاز الاتصال الداخلى فى انفعال :

ـ وصلنا إلى الموقع المحدود بالضبط .. إننا نحلق فوقه مباشرة ، و(الفانتوم) تحوم حولنا .. أسرعا .. الوقت ليس فى صالحنا .

صاح (عرفان) فى (ماهر) :

ـ هيا .. اقفز يا فتى .. إنها فرصتك الأخيرة .. اقفز .

هزّ (ماهر) رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ لاأستطيع .. المشهد مخيف للغاية .

ظهرت (السوبر ماستير) فى هذه اللحظة ، وهى تنطلق بأقصى سرعتها نحو طائرتهم الصغيرة ، التى دار بها الطيار حول المنطقة ، فى محاولة لعدم تجاوز البقعة المنشودة ، فى حين قامت طائرتا (الفانتوم) بمناورة جديدة لمحاصرتها ، ومنعها من مواصلة طريقها ..

وبكل الانفعال فى أعماقه ، هتف الوسيم ، وهو يشير إلى الطائرة الصغيرة :

ـ هاهى ذى طائرتهم .. لقد لحقنا بهم .. سنعيدهم إلى (فلوريدا) ، وعندئذ ..

لم يتمّ عبارته ، فسأله الضخم فى توتر :

ـ أمازلت تصرّ على الانتقام .

ارتسمت على شفتى الوسيم ابتسامة متشفية ، وهو يقول :

لا وجود للانتقام فى عالمنا يا رجل .. هل نسيت القواعد ؟!

قالها ، وعيناه تبرقان فى وحشية عجيبة .

وحشية تعنى أنه يُظهر عكس ما يُبطن حتمًا ..

وكانت كل الملابسات توحى بأنه سيحقق انتقامًا ، أفضل من كل ما تمناه فى أحلامه ..

فالشاب يخشى القفز نحو منطقة التماس ، التى يمضى وقتها بسرعة مخيفة ، والطيار يقوم بدورته الأخيرة فوقها ، بعد أن حاصرته طائرتا (الفانتوم) فى براعة ، ولم يعد بمقدوره الاستمرار ، فصاح فى حدة وإصرار :

ـ فليكن يا رجل .. أطلق النار على رأسى لو أردت ، ولكن البقاء هنا لم يعد ممكنًا ، وإلا فسنرتطم حتمًا بواحدة من طائرتى (الفانتوم) .. أنا مضطر للعودة .

قالها ، وقرن قوله بالفعل ، وأدار عجلة القيادة ، ليتخذ مسار العودة ، فصرخ (عرفان) فى انفعال شديد :

ـ اقفز يا فتى ..اقفز .. لا تضع فرصتك الأخيرة .

تجمّد (ماهر) فى موضعه من شدة الخوف ، وهو يقول بصوت مرتجف :

ـ لاأستطيع القفز .. لا أستطيع ..

اتسعت عينا (عرفان) فى ارتياع ، وارتجف جسده فى انفعـال ، وبدا له أن الحادثة التى ستؤكد صحة نظريته لن تحدث ؛ لأن صاحبها مصاب بخوف مرضى من الارتفاعات ، والطائرة فى طريقها للابتعاد عن نقطة التماس الوحيدة ، التى تم تحديد موقعها بمنتهى الدقة منذ الأزل ، و ..

وفجأة ، اندفع (عرفان) نحو (ماهر) ، صارخًا :

- قلت لك : اقفز .

اتسعت عينا (ماهر) فى ذعر ، وصرخ :

- لا .. لا تفعل .

ولكن (عرفان) انقضّ عليه ، ودفعه أمامه عبر باب الطائرة ، وهو يصرخ فى انفعال شديد :

- اقفز .

انطلقت صرخة ذعر هائلة من حلق (ماهر) ، وهو يهوى من هذا الارتفاع الشاهق مـع (عرفـان) ، وانتفض جسد (هايدن) فى عنف ، عندما رأى المشهد عبر نافذة كابينة القيادة ، وغمغم :

- رباه !.. (عرفان) !..

وفى (السوبر ماستير) ، هبَّ الوسيم من مقعده ، صائحًا :

- اللعنة !.. ماذا فعلوا ؟!.. هناك اثنان يسقطان من الطائرة !

قفز الضخم من مقعده بدوره ، وهو يصيح :

- يا للشيطـان !.. إنهما يهويان من هذا الارتفـاع الشـاهق ، و...

قبل أن يتمّ كلمته انتفض جسده الضخم فى قوة، وكأنما أصابته

صاعقة ، وجحظت عيناه حتى كادتا تقفزان من محجريهما ، وتراجع فى عنف ، وهو يحدّق فى السماء ، فى حين وثب الوسيم من مكانه ، وشهق شهقة بدت وكأنها قد انتزعت روحه من جسده ، من فرط الذهول والانفعال ..

فأمام عيونهم جميعًا ، وعلى نحو يعجز القلم عن وصفه ، تألّق جسدا (ماهر) و(عرفان) لجزء من الثانية ، ثم اختفيا فى قلب السماء ..

اختفيا تمامًا ..

* * *

« لقد عاد إلى عالمه .. » .

نطق الدكتور (هايدن) العبارة فى هدوء عجيب ، وهو يجلس داخل حجرة التحقيقات ، فى مكتب المخابرات المركزية فى (فرجينيا)(*) ، فانعقد حاجبا الوسيم ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين تنهّد رئيسه ، وقال :

ـ هل تعتقد أنه يمكنك إقناعنا بهذه القصة يا دكتور (هايدن) ؟

هزّ (هايدن) كتفيه ، واسترخى فى مقعده ، قائلاً :

ـ لا داعى لأن تقتنعوا بها ، ولكن سيكون عليكم فى هذه الحالة إيجاد تفسير آخر لكل ما حدث .. ظهور ذلك الشاب ، فوق سطح أعلى بناء فى العالم ، وكل الظواهر التى ارتبطت بوجوده هنا .. وحتى اختفائه الغامض .

(*) المقر الرئيسى للمخابرات المركزية الأمريكية .

مطّ الرئيس شفتيه ، وتنهّد مرة أخرى ، ثم تبادل نظرة صامتة طويلة مع معاونيه ، قبل أن ينقر بأصابعه على سطح مكتبه ، قائلاً :

ـ إذن فأنت تعتقد أن ذلك الشاب قد عاد من حيث أتى ، فى حين سقط الدكتور (عرفان) فى عالم متواز بديل .. أليس كذلك ؟

أومأ (هايدن) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتأكيد .. وأعتقد أن هذا سيغيّر مستقبل ذلك العالم البديل ، الذى أتى منه (ماهر) ، وأنه منذ هذه اللحظة لن يلتقى تاريخنا وتاريخه قط ، ولن نصبح أبدًا عالمين متوازيين متماثلين .

سأله الرئيس فى اهتمام :

ـ ولماذا ؟!

لوّح بكفه ، قائلاً :

ـ لقد حصل ذلك العالم البديل على فرصة نادرة ، لم يحظ بها عالمنا ، أو أى عالم آخر ، فى سلسلة العوالم المتوازية ؛ ففى هذه المرة لن تكون لديهم حالة ظهور غامضة فحسب ، وإنما سيجدون أن الشخص ، الذى انتقل إليهم من عالم آخر هو عالم متخصص فى تلك الظاهرة بالتحديد ، خاض التجربة بنفسه ، وحصل على خبرة نادرة فى هذا المجال ..

انعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، وهو يقول :

هل تعتقد أنهم سيسعون للاستفادة من خبراته ؟

هزّ كتفيه ، مجيبًا :

– حتى لو لم يفعلوا ، فلن يصمت هو .. أراهن على أنه سيسعى للالتقاء ببديله هناك ، وستلتقى خبراتهما ، ليصبحا قوة لا يستهان بها ، فىمجال الانتقال عبر العوالم المتوازية .

تبادل الرئيس نظرة متوترة مع رجاله ومعاونيه ، قبل أن يلتفت إلى الدكتور (هايدن) ، قائلا :

– ولكن من أدرانا أن هذا التحالف لن ينقلب ضدنا ؟!.. الدكتور (عرفان) سيبذل قصارى جهده للعودة إلى عالمنا ، حتى لا يلقى مصرعه هناك ، وربما يؤدى هذا إلى أن يكشف نظراؤنا فى العالم البديل وسيلة القفز من عالم إلى آخر ، ويمتلكوا القدرة على التحكم فيها ، مما يهدد أمن عالمنا وسلامته بخطر الغزو ؟!.من أدرانا أنهم لن يسعوا عندئذ لاحتلال عالمنا ، والسيطرة عليه ؟

صمت الدكتور (هايدن) بضع لحظات ، وهو يفكر فى هذا الموقف ..

إنه واثق من أن (عرفان) سيبذل قصارى جهده للقاء نظيره فىالعالم البديل ..

ولكنه يجهل ما يمكن أن يؤدى إليه هذا ؟!..

ترى هل سيقفز العلم قفزة جبارة ، فى العالم البديل ، بسبب هذه الحادثة ؟!..

أم أنه سيسعى بالفعل لاحتلال عالمه والسيطرة عليه ؟!..

بل ، والسؤال الأساسى ، هو : هل توجد وسيلة لاختيار موعد ومكان نقاط التماس بين العوالم المتوازية ؟!.

وهل يمكن التحكم فيها مستقبلا ؟!..

وكيف ؟!..

عشرات الأسئلة راحت تعربد فى رأسه، دون أن يجد لها جوابا شافيا ، لذا فقد تطلع إلى الرئيس ، ورسم على شفتيه ابتسامة ، وهو يجيب :

– أعتقد أن هذا سيظل لغزا ، يضاف إلى مالدينا من غوامض علمية وخارقة .

وعلى الرغم من ابتسامته ، فقد امتقعت وجوههم ، وارتسم عليها مزيج من القلق ، والخوف المبهم من المستقبل ..

وفى ذعر ، راح كل منهم يعتصر ذهنه ،فى محاولة لتحليل هذا الموقف الجديد ..

الموقف الذى بدا لهم أشبه باللغز ..

لغز جديد غامض ، و ...

ومخيف ..

مخيف إلى أقصى حد .

* * *

[تمت بحمد الله]

حلول اختبر معلوماتك

١ ــ الفوتون .
٢ ــ الفاراد .
٣ ــ الخاصية الشعرية .
٤ ــ الشبكية .
٥ ــ الصلادة .
٦ ــ الكهرمان .
٧ ــ النيوترون .
٨ ــ الفلزات .
٩ ــ التوتر .
١٠ــ النيتروجين .
١١ ــ النجوم .
١٢ ــ الآفوميتر .
١٣ ــ الإكتوبلازم .
١٤ ــ الوزن الذرى .
١٥ ــ الصفائح الدموية .
١٦ ــ الجيولوجيا .
١٧ ــ عطارد .
١٨ ــ انريكوفيرمى .
١٩ ــ متوازى الأضلاع .
٢٠ ــ لامارك .

* * *

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

أوراق زهور

قلبى ليس للبيع (قصة كاملة) ―― ٥

اختبر معلوماتك ―― ٤٥

فاى (سلسلة جديدة)

عملية تل أبيب (الجزء الثانى) ―― ٥١

المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة) ―― ١٠٣

قصة العدد

اللغز! ―― ١١١

عزيزى القارئ (١) ―― ٢٢٢

عزيزى القارئ (٢) ―― ٢٤٣

حلول اختبر معلوماتك ―― ٢٦٧

الثمن فى مصر ٢٠٠ قرشاً
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم